

لحن الصباح

محمّد ناجى



حن الصباح

المؤلف:

محمّد ناجى

الطبعة الثالثة:

يناير ٢٠١٠

رقم الإيداع:

٢٠١٠ / ١٥٨٥

الترقيم الدولى: I.S.B.N.

7 _ 23 _ 5634 _ 977

حقوق الطبع محفوظة

لوحة الغلاف:

سيلفادور دالى (بتصرف)

تصميم وتنفيذ الغلاف:

كامل جرافيكس



سنابل للكتاب

٥ شارع صبرى أبو علم - باب اللوق
القاهرة

(+202) 2 393 56 56

(+202) 2 392 65 93



الإشراف العام:

د. طلعت شاهين

Mob.:

(+20) 12 410 20 08

e-mail.:

sanabooks@maktoob.com

www.sanabil.net

لحن الصباح

رواية

محمد ناجي

نطّ عليه وركب صدره، ثم عصر رقبتَه بين زُند وساعد يده ذات الإصبع الوحيدة، وقال له: "خبرني؛ متى تبيض الإوزة؟". لم ينط بالضبط، وإنما تدرج إليه من الوضع قاعداً في شقلابز سريع مثل بهلوانات السيرك، فهو بلا رجلين. الرجلان قصتهما الشظايا حتى نهاية الفخذين، وطيرت أيضاً راحة اليد اليسرى، تركت له راحة اليد اليمنى بإصبعها الوسطى، وألّبتين خشبيتين يزحف على جلدهما اليابس.

كأنه تمرين صباحي، يبدأه عبّاس الأكتع مع برنامج "الحن الصباح" من راديو الحاجة ويكا. يكون هو قد استقر في مكانه على الرصيف المقابل لدكان ويكا، واتخذ نوفل مجلسه على بعد أمتار منه. يعجبه اللحن التمهيدى للبرنامج فيفرد ما بقي من طوله ويرقص، يهز كتفيه ويهشّك بطنه، ويترجم اللحن إلى صوتيات شعبية يغنيها:

— شك شك شيكا بم.. بم بم برلم..

الحاجة ويكا تعرف البقية، تقول له:

— انهذّ يا عبّاس، واترك الرجل في حاله.

مع نهاية اللحن يضحك عبّاس، يمد فكّه الأسفل ويئز مثل طائرة: "إززرز.."، ثم يعمل شقلابزه المشهور واثبا على صدر نوفل.

ضحك الناس، وضحكت الحاجة ويكا ونهرته:

— اتركه.

نوفل راقب الموقف من بدايته بما تبقى له من قدرة على البصر. كان مضطربا لكنه لم يتحرك، أخفى يده اليمنى المرتعشة داخل جيبه وتابعه بعين كارهة، ولما دهمه عباس طاوعه وانسطح على الأرض، قاومه فقط بعلامة احتقار على شفتيه. ضحك الأكتع فى أذنه:

— انطق؛ أريد أن أرى أسنانك.

لم يجاوبه، وجاهد حتى حوّل وجهه بعيدا. هاص الأكتع وتتطط على صدره:

— بم برلم برلم..

لما طالت المسخرة طلعت ويكا من دكانها، عبرت الشارع ورفسته:

— اتركه؛ سيموت وتروح فى داهية.

أدار وجهه إليها وضحك. من مكانه رأى اللون البصلى محبوبا على الأبيض الحار فى نهاية الساق فضحك. لاحظت الحاجة ويكا، فحبكت الجلاباب الأسود على ساقها ورفسته ثانية:

— قم يا نجس.

قام، أو بالضبط تشقلب عائدا إلى مكانه، وجلس أمام بضاعته؛ كتب أدعية فى حجم الأحجبة، وبخور، وعلب عنبر، وجوز الطيب، ومساويك، ومسابع. كان جبينه مغفرا، قال لها:

— المكان لا يتسع لى وله.

— أرزاق.

— لكن بضاعتنا واحدة.

سندت بطنها بيدها وضحكت:

— بضاعة!!

ضحك معها حتى انقطع نفسه، ثم قال:

— له ابن، وأنا مقطوع من شجرة.

— لا تذكره بالأحزان؛ ابنه ضاع فى الكويت.

رفع لها يده ذات الإصبع الوحيدة:

— وأنا أيضا كدت أموت فى الحرب.

تشاغلت عنه، ولكن عينه ظلت مشغولة بها وهى تنظف

الرخامة السوداء فى مدخل الدكان، وتتفرض التراب عن اللافتة

المرفوعة فوق الباب: "سوبر ماركت العهد الجديد".

نوفل تابع الحوار كأنه لا يعنيه. قال لنفسه: "ذات يوم

سأعملها ويروح فى داهية؛ سأموت تحته، وأتركه للسجن وللناس

يلعنونه ويقولون: قاتل نوفل. سينظر إليه القاضى بعين الغضب

الحمراء، القاضى لا يرحم القاتل ولا الزانية".

سدّد إليه نظرة جانبية شامتة، ولما عبرت نظراته أمام دكان

ويكا رآها تنتهى من إفطارها، وسمعها تتادى الأكتع:

— تعال؛ خذ الأكل.

عبر عبّاس الشارع زاحفا على أليتيه، وعاد قابضا بأسنانه

على كيس بلاستيكي دلقت فيه الحاجة ويكا بقايا الطعام. قالت:

— لك وله.

لما استقر عبّاس على الرصيف فتح الكيس، وأشار لنوفل

آمرا دون أن ينظر إلى وجهه:

— تعال؛ خذ لك لقمة.

لنوفل ابتسامة عجيبة تأخذ فيها شفتاه وضع "مؤخرة الإوزة"، فقد تعود طوال عمله كخطاط أن يزمّ شفتيه ، ومع العمر أصبح فتح فمه أمرا صعبا. وحتى عندما فقد القدرة على الخط لم تنفرج شفتاه، بل زادت الحالة عنده، فالمهنة فى دمه، وأجمل اللافقات التى كتبها فى حياته لا تزال ترف فى الهواء أمام عينيه. أحيانا يعيد كتابة اللافقات المعلقة بعين خياله، ويتعجب كيف أصبحت الخطوط رديئة إلى هذا الحد.

تمشى الابتسامة فى شفته العليا النحيلة كأنها نبضات كهربائية رعاشة، تنتقل ببطء من طرفى الشفة لتتجمع فى المنتصف، ويكون تمام الابتسام عنده شفتين منكورتين مثل مؤخرة الإوزة، وهو الشبه الذى اكتشفه عباس الأكتع ذات يوم، فهجم عليه بأريزه العالى، وقال له:

— ابتسم يا رجل؛ أريد أن أرى أسنانك.

كورّ نوفل شفتيه فى وضع مؤخرة الإوزة، وهو يرقب عباس بنظرة جانبية متوعدة شامتة: "سيسخر منه القاضى والمحامون والشهود، وهو داخل القفص، مقصوص الأطراف مثل قرد. سيجلس القاضى فى الشرفة، ويضعونه فى القفص وسط الساحة الواسعة، حتى يأتى الناس من تحت القوس الحجرى يتفرجون

عليه. سيضحك الجميع على منظره، وتقذفه المرأة المخبولة بالحجارة وتلعنه. نجس. قرد لئيم يستحق السجن؛ سييكي ولن يرحمه أحد".

خشى أن يقرأ الأكتع أفكاره، فحوّل وجهه عنه ونظر إلى اللافتة الوحيدة التي بقيت بخط يده ولا تزال مرفوعة على أول الشارع. قال لنفسه: "لولاها ما تحملت جوار الأكتع اللئيم". ولعن الرّعدة التي جعلته يجلس هكذا على الرصيف. فكّر في أنه يمكن أن يكتبها الآن بخط أجمل لو شفيت يده: "سأكتب واحدة مثلها بالضبط وأعلقها على بيت القاضى الأثرى، سأرفعها عاليا حتى لا تطولها يد".

لعن الله الرّعدة. يعرف أنه لا شفاء منها إلاّ بمسبحة من الكهرمان، يتلو اسمه تعالى "الشافى" بعدد حباتها ثم يلفها حول الرسغ فتلقط الرطوبة من العصب.

نظر إلى المسابح التي يبيعها، حباتها مخروطة من البلاستيك أو الخشب، يتفرج عليها المارة ثم يُعيدونها إليه فى احتقار. رخيصة وتافهة، يعرف ذلك، لكن من منهم يستطيع أن يشتري مسبحة من الكهرمان أو العقيق الحر فى هذا الزمان؟. المشترون لا يفرقون بين مسبحة وأخرى، ولكنهم يجادلونه فقط من أجل شلن أو بريزة.

لو صرف التعويض سيكون أول شئ يفعله أن يشتري مسبحة من الكهرمان، سيشتري أيضا ياقوتة حمراء، الياقوت بحر من الأسرار، بعدها يستطيع أن يتفنن فى الخط من جديد. تذكر

النظرات المستحسنة المتراحمة حوله فى مواسم الانتخابات، هزّ رأسه محييا كل العيون الناضرة إليه، وسرى النبض الكهربائى فرسم على شفثيه ابتسامة الإوزة.

مع الحر هبّت سحابة من ذباب، حطّت على وجهه ويديه. قام، سند وسطه بيده الرعاشة، وحمل بالأخرى صفيحة فارغة ملأها من دكان الحاجة ويكا. استمهلته ويكا وأعطته سيجارة، ثم سألته عن أخبار ابنه. باضت الإوزة من فم نوفل فتكلم:

— لا رجع، ولا صرفوا لى التعويض.

— اصبر.

— هه.

عاد، رشّ الماء حول مجلسه، ثم وضع السيجارة بين شفثيه وأشعلها.

رآه الأكتع فطار عقله، عبر الشارع إلى الدكان:

— سيجارتى.

— أهى ضريبة يا أكتع؟!

— لى مثل ما أخذ؛ ربك يحب العدل.

ثم ضحك:

— الإوزة باضت؟!

— باضت.

— ورأيت أنياب الكلب؟

ضحكت وسكتت.

— ماذا قال؟

- سألته عن ابنه وجاوبنى، مسكين.
- سأظل أطارده حتى ينطق ويكلم نفسه.
- هو يكلم نفسه فعلا.
- ناولته سيجارة وأرادت أن تشعلها له، فخطف الكبريت وأشعلها بنفسه مستخدما مهارة يده ذات الإصبع الوحيدة. ثبت مشط الكبريت فى راحته، وثنى العود حتى لامس الشطاطة، ثم حرّكه فوقها حركة حاسمة وسريعة، فاشتعلت النار.
- عباس يقدر على كل شئ
- لم يبق منك إلا لسان.
- تخلصت من أشياء كثيرة لا تُلزمنى، خلعتها ورميتها. أما اللسان فهو نصف الرجل.
- والنصف الآخر؟
- ضحك وتأرجح على أليتيه:
- لسان أيضا.
- يا نجس.
- تململ فى مكانه، فاستوقفته:
- انتظر يا أكتع.
- انتظرها حتى خلا الدكان.
- عندى عروسة لك.
- عروسة المولد؟!
- عروسة؛ امرأة يا أهبل.
- أضغط على بطنها تتادى: "بابا.. ماما"؟

- امش يا متعوس، لا تضيع وقتى.
- هئ.. هئ.
- أنا لا أهزل.
- حلوة؟
- ملبن.
- أرملة؟
- بنت.
- سلام عليكم.
- يا ولد تعال، هئ بنت لكنها فى عمر أمك.
- ليس لى أم.
- كيف؟!
- هكذا؛ باضنى غراب على شبّاك مسجد.
- انتظرها حتى باعت علبه سجائر وشرحت له:
- كبيرة، كانت تخدم فى بيت طبيب، ولما انهّد حيلها
طردوها.
- فهمت ؛ كبرت وتريد من يخدمها.
- ليس هذا قصدها، وإنما تبحث عن أنيس.
- ولماذا لم تتزوج حتى الآن؟!
- فيها عيب.
- إيه؟
- لها عين وحيدة.

— أعوذ بالله، أنا أتشأم من العور، سأهرب منها هروب
فرغلى من أهل بيته.

— أمّا هي فمتفائله بك، يعجبها كساحك.

— تعرفنى؟!

— رأتك بعينها العوراء.

دار بأكتافه ربع دوره، ومسح صدره بذراعه:

— ما رأيها؟

— انخبلت؛ جمالك سحرها.

سكت.

— فكّر.

فكّر فى فتاة البرتقال، وقال لويكا:

— تلزمنى سيجارة.

أشعل السيجارة بطريقته الخاصة، وفكّر فى الأوضاع
الحرّة التى يمكن أن تجمع بينه وبين المرأة، ثم قبض على
السيجارة بأسنانه، وتشقلب أمام الدكان:

— الأكتع حديد.

لم يستبعد عبّاس أن يكون قصد الحاجة ويكا هو اللعب
بأفكاره، لكنه فكّر فى الموضوع بجد، ولام نفسه على أنه لم
يطلب رؤية المرأة، وقال: "سأنتظر؛ يلزمنى وقت لأختبر صدقها
قبل أن أطلب منها ذلك، وإلا تحول الأمر إلى مسخرة".

كان الأكتع مشغولاً بأفكاره حين باع نوفل خمس مسابح
وخمسة مساويك دفعة واحدة، اشتراها ريفى وعقد عليها منديلته ثم

بدأ المساومة فى السعر. كان نوفل قلقا، عيناه على الأكتع طوال الوقت، وهمّه أن ينتهى من البيع قبل أن ينتبه له ويتلف كل شئ. الأكتع لم ينتبه إلا بعد أن قبض نوفل الثمن جنيهين كاملين، وضعهما فى جيبه ورسم على وجهه ابتسامة الإوزة. هرش عباس رأسه، وزحف على أليتيه إلى منتصف المسافة بينهما ويداه فى وسطه ثم زعق:

— كل شئ بشلن؛ مسبحة مسواك عنبر، أى شئ بشلن.
رجع المشتري خطوتين ونظر إلى بضاعة عباس، وتحيّر لما رأى الناس يضحكون. وفجأة تشقلب الأكتع أمامه، وصرخ فى وجهه:

— أى شئ ببلاش.
خاف الرجل؛ أدرك أن فى الأمر ملعوبا، فضحك وجرى وهو يتلفّظ.

يسكن الأكتع في شقّ طويل بين بيتين؛ طوله أربعة أمتار وعرضه متر، ترك كل بيت نصف متر ليفتح شبابيك على الجوار. لما اكتشفه عبّاس فرح به واستخدم كل مهاراته في الجبال في تهيئته للإقامة. ثبّت عارضتين خشبيتين بين فراغات الطوب الأحمر، واحدة على مدخل الشقّ والأخرى في نهايته. من العارضة الأمامية تتدلى قطعة من الخيش؛ باب. وعلى العارضتين قطعة من البلاستيك تميل في اتجاه المدخل لتتحدّر عليها الأمطار في الشتاء؛ سقف. في الصيف يرفع عبّاس السقف حتى لا يموت من الحر، ومن الشقّ يتلصص على أيادي ورقاب وضحكات النساء الغافلات في الشبابيك.

عندما استقر في الشقّ لعبت الفكاهة برأسه، فعلق على المدخل لافتة كتبها له صبي من طلاب المدارس على ورقة رسم؛ "تجارة أبطال التحرير".

الحاجة ويكا زرعت قرن فلفل حار في مؤخرته حين قالت

له:

— مفتشو الضرائب مرّوا، قرأوا اللافتة وأخذوا عنوانك

واسمك، كنت نائماً وقتها، ربك يستر.

مزق اللافتة، وظل قرن الشطة يلسع دبره شهورا حتى فهم أن ويكا تسخر منه، فضحك وعمل لها أكبر شقالباز عنده، وقال: — كنت أعرف والله.

خشى الأكتع أن تفوته بعض الترتيبات المهمة لليل، فغطى بضاعته بقطعة بلاستيك وثبتها بمشابك، ثم دخل جحره.

على الحائط بطانة من الخيش، وأكياس يحفظ فيها ملابسه، وصور معلقة. على الجدار الأيسر رؤساء ورياضيون، وأزياء رجال فارغة؛ مجرد ملابس. الأيمن ممثلات وعارضات أزياء وعشاق في أوضاع حرجة. وسط المناظر المثيرة صورة قديمة لعباس بين أصحابه في ملابس العسكر وعلى كمة شريطان.

في نهاية الشق صندوق بقفل، ثبت عباس ظهره في الحائط بمسامير طويلة دقها من داخل الصندوق حتى لا يسرقه أحد. في الركن قطعة خشب مسطحة ذات أربع عجلات، يركبها عباس ويستخدمها كعربة في مشاويره الطويلة. يسميها "الخنزيرة"، ويقول للناس: "آخر موديل".

على الأرض زجاجات كثيرة، ودلو متوسط الحجم من البلاستيك. اطمأن عباس إلى وجود سبرتو بكميات كافية، ونظف المكان من الزبالة التي ألقاها الجيران في أول النهار، ثم حمل الدلو وركب الخنزيرة وخرج. اشترى عصير قصب وعاد، صب السبرتو على العصير، ثم ملأ الزجاجات وأغلقها. رصّها وعدّ: "1، 2، 3، 4، 5، 6، 7..".

ألقي نظرة على المكان فانبسط قلبه، ولكن قفز على رأسه سؤال حيّره وهو كيف سينام مع المرأة في هذا الجحر؟!.. فكّر ووجد الحل: "سأحل المشكلة على طريقة نوم العساكر وقت الراحة في الخنادق؛ ننام بطول الشق وقدم كل واحد في اتجاه، أنا في الخارج وهي في الداخل ورأسانا متلاصقان. أضع رأسي على صدرها وتضع رأسها على صدري، وفي هذا الوضع يمكن أن أكلّمها وأقبلها، وعندما تطلبها نفسي أتشقلب فأركبها وتنحل المشكلة".

ارتاح للحل، وفكّر فلم يجد مشكلة أخرى يمكن أن تزعجه، فقفز من داخل الجحر إلى الرصيف بشقلاّب كبير، وخطب على صدره وصاح:

— الحمد لله.

فردت الإوزة جناحيها على وجه نوفل، بينما كانت الشمس تغيب ببطء خلف لافتته المعلقة على مدخل الشارع. هي الوحيدة بخط يده التي لا تزال معلقة حتى الآن. سرت الابتسامة الرعاشة واللافتة ترف وتسطع بنور الشمس الغاربة من خلف، وحولها تشكيلات من الشفق كأنها عرائس تطوف بها في الملكوت. لا يستطيع الآن أن يقرأ الكلام من هذه المسافة الطويلة، لكنه يتذكره: "من أجل مصر.. العدل والحرية والأمان.. انتخبوا رمز المركب".

يتذكر أيضا أنه كتب اللافتة لشاب نحيل عصبى؛ يدخل وينتقل كثيرا وينكش شعره، ويتهمس مع أصحابه. كان يلزمه دائما شبان في مثل سنه وعلى شاكلته. كتب له لافتتين فقط؛ هذه اللافتة، وأخرى مثلها علقها على بيت القاضي الأثري، ولكن خصومه قطعوها في الليل. فشل في الانتخابات وكانت نتيجته مضحكة.

اختفى مع رفاقه بعد ذلك، ربما سافروا. الكل سافروا، طائرات كثيرة تعبر المدينة في الليل والنهار، تنز وترحل. هو نفسه لم ينتخبه، طوال عمره يكتب اللافتات للجميع لكنه لم ينتخب أحدا، الآن لا يعرف لماذا.

تسحبت الشمس وطلعت من تحت اللافتة، تمطت عرائس الشفق ثم أطلقن اللافتة وغطسن مع الشمس خلف البيوت، وبقيت نتف وردية من أيديهن متناثرة تحت اللافتة وهى ترف كأنها مركب يتخبط فى بحر بلا نور.

رقدت الإوزة على حزن وجهه، ثم مدت منقارها بين حاجبيه ونامت. ظل يتلفت كالمدهوش، وبصره الكليل حيران بين بقايا الشفق المعلقة والشارع الذى يتأهب لليل الكهرباء.

جمع بضاعته فى كيس كبير من الكتان، وظل يراقب الموقف. انتهاز فرصة دخل فيها الأكتع جحره وقام، وضع يده الرعاشة فى جيبه حتى يداريها عن العيون، وحمل كيس البضاعة باليد اليسرى. ظل يتلفت حتى خرج من الشارع، ألقى نظرة أخيرة على اللافتة الشاردة فى الغسق الأخير، وتلفت أكثر من مرة خلال سيره فى الحارات حتى اطمأن إلى أن الأكتع لا يتابعه. فى رأسه وسواس قديم؛ سيتابعه الأكتع ذات يوم لكى يعرف مكان سكنه، فيؤرقه فى ليله بنفس الطريقة التى يسود بها نهاره، شر وقلة أدب. فكر: "الأكتع لن يرتاح حتى أموت، باع لى كل ما فى قلبه من شر، يستقنى كل يوم ملعقة، يملؤها ويدسها فى فمى غصبا. لن يرحمه القاضى".

بعد أن اطمأن هدأت خطواته. دحرجت قدمه أحجار الطريق، وحلم بالياقوتة الحمراء. مشى عبر حارات ضيقة مسقوفة فى طريقه اليومى إلى ضريح الشيخ فرغلى أمير المرعوشين وولى

أهل الرجفة. فكر فى الحكاية وتعجب: "لماذا جعلوا ضريحه جنب ضريح الجارية؟!".

هو لم يزر ضريحها أبداً، يشيح عنه بوجهه كأنه لا يراه، لكن المسألة تحيرُه: "لو جاء فانوس اليوم سأسأله، لابد أن فى ذلك حكمة يعرفها فانوس، لو جاء سأعرف منه".

خلع نعليه على باب الضريح، وفى الداخل مسح بيده اليمنى المرتعشة قضبان الفضة المزخرفة. دس أنفه بين قضيبين، وتوسل فى سرّه: "نظرة، نظرة واحدة وافعل بعدها ما تشاء". زادت رعشة يده حتى اهتز معها الساعد وخبط كوعه القضبان. حول وجهه عن الراقد فى القفص المزخرف وحشرج: "أمرك يافرغلى". كان عاتبا.

خرج. أسند ظهره إلى جدار الضريح وقلّب عينيه فى المشهد؛ صفرة، وليل، وكهرباء، وأخلاط رجال ونساء وبيوت. انفرطت الأرض وضاع الأثر؛ التلال لم تعد إلى مكانها، فرت من هول ما حدث. هى الآن هناك خلف المدينة، صخر على صخر وهضبة عالية.

هنا كانت جبال شهدت المحنة الكبرى؛ عيون ماء ووديان وتلال، أسس عليها الأمير فرغلى مدينته، وأقام حصونه فى معاقلها. قال له فانوس: "التلال أسوار للمدينة فكيف يقدر عليها عدو؟ وبواباتها رمال متحركة؛ تسع بوابات مطلّسة، فكيف يدخلها من لا يعرف سرّها؟".

هنا؛ مكان الضريح كانت أعلى القمم، تلمع فوقها الصخرة سوداء، مستديرة وناعمة كجلد الأفعى. قال له فانوس: "كانت صرخة استغاثة أطلقتها الأرض في زمن الطوفان، تجمّدت الصرخة وظلت تائهة في الآفاق حتي استقرت فوق القمة العالية، يسمونها صخرة الأسرار".

في الأصائل يصعد على حصانه الأسود إلى الصخرة، ليرقب مدينته بعقل أمير وقلب وليّ. قال فانوس: "كل يوم كأنهم يرونه للمرة الأولى، تسأل المرأة زوجها ويسأل الرجل أخاه: من ذا الواقف فوق القمة الشاهقة وشرر خطى حصانه المتململ فوق الصخر الأملس يومض في الشفق؟.. كل يوم يسألون نفس السؤال يا نوفل، وكل يوم يرددون نفس الجواب: هو ذا أميرنا في عباءة سوداء فوق حصان أسود على صخرة سوداء، تطير الرياح طرف شاله الأحمر. أسود فوق أسود فوق أسود، يومض تحته قوس من شرر، وفوقه قوس من شفق أحمر يتدلى من قباب الأفق".

قال فانوس: "آه يا نوفل لو شهدت ذلك الزمان؛ كانوا يغنون على جانبي طريقه الأسود الأملس الصاعد إلى صخرة الأسرار: سيف أميرنا برق أنزل الخوف في قلوب أعدائه، ورمحه طويل مثل نيل مصر، شبك فيه مدنهم وألقاها في الصحراء وغمرها بملح البحر".

يقول فانوس:

— لم يقدر عليه فارس ولكن أذلّته الجارية.

— من الجارية يا فانوس ؟

— الجارية، كل امرأة جارية.

وحكى فانوس :

— فتح لها قلبه وأعطاهم مفاتيح الأسرار .

— أى أسرار ؟

— بوابات الرمال التسع؛ الرمال المتحركة التى لا يعرف
طلاسمها غيره.

يفكر نوفل؛ هل كان يحبها ؟

— فى جوف الصخر أمان المحارب، يخلع سيفه وترسه
ويسلم عروقه للجارية.

يفكر نوفل؛ من كان يستطيع أن يخمن؟!.

— ذات ليلة طلعت، أضاءت القناديل على مداخل بيت
الصخر، ووقفت تتلفت وتتسمع؛ كانت مسحورة بين الظلال. قالت
له: "خلف التلال خارج المدينة عزف وغناء وفرح يا أميرى".

فكر نوفل؛ وقتها لم يكن يعرف.

— وقالت: أطلق الشعب فيفرح". هو لم يسمع؛ كانت حبلى
وكان قلبه مشغولا بالولد.

يفكر؛ ترى من أبوه؟

— ثم كانت ليلة الحزن يا نوفل، صحا وقت الفجر الكاذب فلم
يجدها فى مكمته الصخرى. طلع ينظر فرأى أعداءه حوله من كل
جانب، ورأى بينهم جنوده وشعبه والجارية الحبلى. صاحت حين
رأته: أطلق الشعب". وصاح أعداؤه: أسلم الشعب". رأى الشر

على وجوه الجميع، فنطّ على حصانه وزعق: أهّاه.. أهّاه". برق سيفه ورعدت صيحته في الملكوت، لكن يده كانت ترتعش، نقل سيفه لليد الأخرى فارتعشت. طلعت الشمس ونادته: "ثبت يا قلب فرغلي"، لكنه كان قد انكسر. قبض على سيفه بأسنانه، وعلّق زنديه المرتعشين على الحد المسنون فبترهما السيف، ثم لكز حصانه فركض به في الأفق. الشمس خجلت، أدارت وجهها وانكسفت خلف غيمة، وانفرطت الجبال والتلال، فرّت وتكوّمت خلف المدينة، هي هناك الآن صخر على صخر وهضبة عالية. ثم كان ليل طويل على الأرض تعاقب فيه صيف وشتاء.

بدأ عباس طقوسه المسائية بلعبة الشجرة. ركب الخنزيرة الخشبية وزحف حتى نهاية الشارع، انعطف يمينا ثم إلى اليسار ليدخل الحارة المسدودة خلف مخزن الخشب. ألقى السلام على الأشجار، وتوقف تحت الشجرة ذات الجذع المائل والزهور الحمراء، ثم ترجل ونزل من على العربة. رقد على الجذع ذي الميل واحتضنه بزندان قويين، وزحف لمسافة قصيرة: "هه.. هه"، حتى استراح جسده على الجذع. خلع سرواله وهو على هذا الوضع، وبدأ يسترخي حتى ينفرج ما بين أليتيه، ويفرغ بطنه. لا يستطيع أن يفعلها إلا وهو على هذا الوضع؛ الشظايا لم تترك من فخذه شيئا يرتكز عليه ويساعده على الانفراج. لو قطعوا هذه الشجرة ذات الجذع المائل لصارت مشكلة، فكيف يعملها وهو معلق في شجرة مستقيمة الجذع؟! تذكر كيف كان يتصرف مع نفسه زمان؛ كان يحفر في الأرض، ثم يستلقى على ظهره، يسترخي ويعملها في الحفرة. لكن وضع الشجرة ذات الجذع المائل كان اكتشافا عبقريا. الآن استراح؛ عملها ونزل. ألقى السلام على الأشجار وانصرف.

يتذكر أمه الشجرة؛ رآها أول مرة يوم عودته من الصحراء،
كان في صندوق السيارة المقفل وسط أجساد كثيرة هامة، حين
أفاق لم يكن متأكدا من شيء، كان خائرا. تطلع من الكوة الزجاجية
فراها؛ رمال ممتدة وهي وحيدة، عجوز مغبرة تفرد أغصانها
نحوه، والسيارة تمضي في طريقها بحملها الهامد. تشبثت بها
عيناه وناداهما:

— أماه.

ربما نجا بسر هذا النداء.

في دورة المياه خلف ضريح الأمير فرغلي؛ اغتسل ولبس
هدومه النظيفة. لما انتهى وجد أوان الصلاة الأخيرة قد فات وباب
الضريح مغلقا، فرفع يده بالسلام العسكري وهو يزحف على أليتيه
في وضع "إلى اليسار انظر"، وقال للمحبوس في الداخل: تمام يا
أفندم". وقال لنفسه: "لم يكن أقل من شاويش".

تذكر نوفل المرعوش واحتقره وقال لنفسه: "يستجدي الناس
بيده المرتعشة". يكرهه، زمن الرجال انتهى. جسده مكتمل لا
ينقصه إصبع ولكن الرعشة في روحه، لماذا يعيش إلى الآن؟!
فكر: "لو كان الأمر ينفع لقفزت داخله وطرقت روحه وتمددت
في أعضائه، يلزمني ساقان ويدان مكتملتان؛ غدا سأتزوج".

في الطريق استوقف صبيا صغيرا:

— انتظر.

تمهل الولد بين خوف ودهشة.

— لاتخف؛ افرد قامتك وابسم.

وقف

— ابتسم.

أخرجَ المشطَ من جيبه:

— الآن أنتَ مرأتى، لاتخف؛ دقيقة واحدة وتتصرف.

فى الطريق دحرج الحصى بقدمه مرة أخرى، وتأمل سنابل القمح المعلقة على مداخل البيوت. فكر فى وصية فرغلى: "آه لو جئت الليلة يا فانوس؛ سأطلب منك أن تحكيها لى مرة أخرى. لك طريقة فى الكلام لا يعرفها غيرك، أسمعك فتضى يا قوتة القلب".

زمان قال له فانوس: "جدى وحده كان يعرف وصيته المنقوشة فى باطن صخرة الأسرار، لا أحد يعرف متى دُونوا الوصية، ولا كيف نقشوها فى باطن الصخر. مشى فى زمن الخراب يغنيها على شطوط الترعر والجسور، كان لا يغنى إلا فى الليل، ينتصب فى مكان الریح وربابته على رأسه، يهبّ ويعزف فتسمعه البلاد من أطرافها إلى أطرافها. كان صوته قويا، والريح تساعد، والناس يسمعون ويتعجبون من أين يأتى الصوت".

— كل البلاد؟!

— كلها يا نوفل. لو أنصت لسمعت.

— الآن يا فانوس؟!

— الآن يا نوفل.

— لكن جدك مات!!

— والريح لم تمت يا ابن العم؛ فكر.

يفكر؛ آه ما أعجب الكلام: "يا أهل مصر علّقوا على أبوابكم
حدوة حصانه فلا تدّقها أيدي الجبارين، وعلّقوا سنابل حنطة فلا
يفطن الأغنياء لجوعكم ويشترون نساءكم بثمن بخس؛ رغيف
خبز. هاتوا عصفا من ورد يابس وأوراق صفصاف، وضعوه
على شرفاتكم قربانا للريح، فتبدده بدلا من أن تبددكم فى الأسواق؛
فتبيعون ألسنتكم، وتعرضون عرق سواعدكم على قارعة
الطريق".

— أكمل يا فانوس.

يضحك ويلوى طرف شاله الأبيض:

— كيف يا نوفل؟!.. من يقدر أن يكمل والريح لم تتم نشيدها
إلى اليوم؟!.. فكر.

تاھت أفكاره وهو يدحرج الحصى. كانت خطاه تقوده إلى
بيته، ولكنه تذكر فحوّل اتجاهه إلى بيت مطلّته أم الغائب. صعد
نصف درجات السلم بمشقة، ثم جلس على الدرجة الكبيرة،
وناداه بصوت ضعيف:

— يا جارية.

لم يسمعه أحد، ولكن رآه صبي كان يهبط السلم قفزا فخطه
بقدمه دون أن ينتبه. رجع الصبي، صعد السلم، ودفع الباب
الموارب، وقال للمرأة:

— عم نوفل على السلم.

كانت فى وسط الصالة تمشط شعرها المبلول، فردته على
صدرها وشدت أطرافه بيدها حتى لاتتعثر فيه أسنان المشط. لما

فتح الولد الباب؛ حوَّلت ساقِيها عن اتجاه عين الداخل، وحبكت القميص على الساقين. سألت نفسها: "هل رأى؟".

— عم نوفل ...

— سمعت، اخرج واقفل الباب.

لَفَّت رأسها بمنديل، ولبست الثوب الأسود، ونزلت. جلست على الدرجة التي تليه:

— لماذا لا تصعد؟

هزَّ رأسه هزات لا معنى لها، لم يكن يقصد شيئاً، فقط كان يفكر: "هل أسألها؟".

— لا تَقَلِّقْ يا نوفل؛ هو ابنك، لابد أن أخبرك بأى شئ أعرفه عنه، صدَّقنى.

استمر يهز رأسه حتى ظنَّت أنها الرعشة.

— صدَّقنى.

كان يفكر؛ متى صدقت؟!

— زوجى ذهب اليوم إلى السفارة مع أحد أقاربه، له معارف وأصحاب هناك. تأخَّر، أليس كذلك؟.. ربما عرف شيئاً.

طال سكوته فقالت:

— زوجى مهموم بالأمر كأنه واحد من أولاده.

الرَّعْشَةُ.

تذكرت فغيَّرت الموضوع:

— الأولاد لم يرجعوا؛ كبروا وتعلَّموا السهر.

تسند ووقف. وضع الكيس على كتفه.

— لو عرفت سأخبرك؛ أنت أبوه..

نزل درجة.

— لن تتم أى إجراءات بدونك، لابد أن توقع على الورق.

سرى النبض الكهربائى. درجتين.

— توقيّعك مهم.

ثلاث. وقفت وأدارت وجهها فى حيرة:

— مهم؛ أنت أبوه.

أربع. كوّرت الإوزة مؤخرتها. تنهدت:

— لينته يعود.

خمس درجات.

— انتظر.

واصل النزول لكنها لحقت به عند الباب:

— خذ، لقمة للعشاء.

وقالت:

— أعرف؛ قلبك مَجوع. غدا سأمر عليك لأخبرك بالنتيجة.

وسألته:

— أين تجلس الآن؟

— هناك.

— عند وىكا؟

— آه، وىكا.

— سأمر عليك غدا.

وقالت للصبى الذى رأى:

— خذ بيد عمك نوفل حتى آخر الحارة؛ حفر الطريق كثيرة.
طوال الطريق كانت يده ترتعش. زادت الرعشة حتى هزت
مفصل الكتف. فكّر في المرأة: "الجارية كبرت وشاخت، أصغر
منى بعشرين سنة لكنها شاخت".

على الجانبين مقاه ودكاكين وناس. برم نفسه داخل جلده
وتسحب بمشقة وسط الضوضاء، برمها حتى كاد يتلاشى. كانت
عيناه ترمشان وهو يطرد صورة الجارية: "لم تلد لى غيره،
وولدت لغيرى أربعة". تمهل عند بيت القاضى، وابتسم ابتسامة
الإوزة حين تذكر قول فانوس: "كان لا يرحم القاتل ولا الزانية".
رمت المرأة المخبولة بالحصى، وخرفت:

— أقفل فمك وابتعد؛ رأسه موجوع وقلبه عليل، ولا يريد
زيادة فى الكلام. ابتعد، واحذر أن تدنس طرف السجادة.
على باب داره تلقت للمرة الأخيرة ليتأكد من أن الأكتع لا
يتابعه، ولما رأى القمر خاف وتعجب من حيله الكثيرة. دلقه
الخوف فى عتمة المدخل، وتخبّط فى الممر الدوار حتى استراح
قلبه على باب غرفته. دخل وأضاء المصباح.

جذّف بساعديه بقوة، وجلجلت عجلات الخنزيرة على الأسفلت. فى الطريق ملاً بطنه بالكشرى والشطّة، ثم مر على المقهى فعدل مزاجه بكوب من الشاي، وفكّر: "فى الصباح سأسأل الحاجة ويكا، لا داعى للكسوف، لو كانت تخدعنى سيظهر الكذب على وجهها".

لعب الكوتشينة مع ناس لا يعرفهم، وخسر الرهان من أول دور، فانسحب من اللعب وقال لنفسه: "فلوسى قليلة لا تحتمل الخسارة، ووجوههم قاسية؛ لن يردوا لى فلوسى".

القمار ضيّعه زمان؛ خسر التعويض جنيها وراء آخر حتى أفرغ جيبه على الطاولة، ولكن لا يزال فى رأسه خاطر يلاعبه: "ذات يوم سأكسب، ضربة حظ واحدة وينعدل الكون، الطريقة الوحيدة لتعويض كل شئ". وقال لنفسه: "سأشتري عربية معدنية بعجلتين كبيرتين".

الآن آن الأوان. عاد إلى جحره، وشرب من عصير القصب والسبرتو. كانت ويكا تتأهب لإغلاق دكانها، فحيّاها وأخذ منها سيجارة. أشار إلى مكان نوفل وسألها:
— أين ذهب؟

— نزل تحت الأرض، هرب منك.

— لن يفلت.

— اترك الرجل فى حاله، لماذا تطارده؟!

— كيف آمن لرجل لا أستطيع أن أرى أسنانه، ربما كانت له
أنياب كلب. لن أتركه.

فكر فى الأمر الآخر وهم أن يسألها، لكنه أمسك لسانه وقال
لنفسه: "لو عرفت أننى ملهوف ستلعب بأفكارى، الصباح أحسن".
يتذكر؛ نساء وقطارات. صفارات وأجراس ومناديل، رحلات
الليل والنهار. وجوه على المحطات؛ خدود وشفاه وعيون. بنات
يبعن المثلجات، يشرب ويلمس بكوعه الصدور الطرية. مع
السلامة يا دفعة، مع السلامة.

يتذكر؛ القطار فى حديقة البرتقال، توت توت. هرب من
الزحام والحر والكمسارى إلى سطح الديزل. البنت كانت وحيدة،
رمت له برتقالة: أحبك يا دفعة. طاشت البرتقالة وبقيت ذراعه
مفرودة. أخذت من حجرها ورمت له غيرها، طاشت. الثالثة،
والرابعة. الهواء يخبط ضلوعه، ويده مفرودة، والبرتقال ينفرط
ويتحرج على الأرض. البنت تجرى والقطار: توت توت.
مع السلامة يا دفعة.. توت توت.. مع السلامة يا دفعة.
مع السلامة.

الآن الشارع يخلو، غبار فى الأفق، وحرّ، وقمر، وكلاب
تلهو. معه زجاجات العصير والسبرتو، رصّها فى الدلو ثم حملها
معه على الخنزيرة. يشرب ويزحف على عربته، وعجلاتها
تجلجل على الأسفلت كأنها مدرعة.

عمل مناورة بارعة بالعربة، سريعا إلى الأمام ثم إلى الخلف،
وعمل دورات كاملة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، ثم استقر
على الرصيف عند الناصية حيث تلتقى الحارات.
استقر فى وقفة مهيبة.

شرب ولم يعجبه المنظر، قال للقمر: "لو كنت مكانك لعجبتها
وبنيها من جديد". أعجبه الفكرة فضحك وحاول.

بخبرته كخباز سابق عجن المدينة، ثم كوم العجينة أمام
ناظريه وأعاد تشكيلها؛ بسط الوديان وفجر الينابيع، وأطلق
الخراف فى المراعى، ورصّ التلال حول المدينة، ثم رفع إصبعه
الوحيدة فدحرج الصخرة السوداء؛ صخرة الأسرار الهائلة فى
الآفاق، دحرجها حتى استقرت على القمة العالية.
الناس بين الوديان والشعاب ينتظرون.

الآن لا حركة.

التفت إلى المرأة وأعاد تشكيلها أيضا؛ قصف رقبتها ورماها
ووضع مكانها وجه ويكا، ثم وضع المرأة على يمينه وألبسها ثوب
العرس. الآن اهتم بنفسه؛ العريس. لبس جسد نوفل، واحتفظ
بوجهه حتى لا يختلط الأمر على المرأة أو عليه، فقط أعطى
الوجه استدارة القمر، وعلق شريطين على كفه.

لما أتم عمله انبسط قلبه واستراح، شرب زجاجة دفعة
واحدة.

الآن نفخ العازف فى المزمارة، فهبت نسائم صيف وتحرك
الناس على جانبى الطريق يحيونه. تأبط ذراع المرأة ونزل من

على الرصيف. عزفت العجلات لحنها على الأسفلت، وترددت في أذنيه أخلاط غناء ونقرات دفوف. كانت زفة عجيبة مشت فيها كلاب الشارع، جذبتها رائحة الكشرى المخلوط بعصارة المعدة، فتراحمت تتشمم مؤخرة العريس.

لم ينتبه إلا بعد أن عضه كلب من خلف، فضربه بالمدفعية الثقيلة، ولما اقترب غيره قصفه أيضا، وظل يطارد الكلاب وتطارده حتى قرب الفجر.

أسند نوفل ذقنه على قاعدة الشباك ذى القضبان، وتأمل الشرفة الواسعة فى بيت القاضى والقوس الحجرى الذى يحدها يسارا. منذ زمن طويل لم ينعقد مجلس العدل فى هذه الشرفة، ولا تدفق الناس من تحت القوس الحجرى إلى الساحة الواسعة يهتفون للقاضى ياقوت.

أثر قديم؛ بيت من طابق واحد، خلفه بيوت عالية وقباب ومآذن، وفوقه أفق وسماوات ممتدة. على الرصيف تحت القوس الحجرى تسكن المتسولة المخبولة، تنام فى النهار وتصحو فى الليل لتتسول على طريقتها الخاصة؛ تشتم المارة وتلعنهم: — ارم صدقتك من بعيد وانصرف. لا تلمس يدى ولا تدنس السجادة. من بعيد يا نجس، ارمها وانصرف.

أحيانا تتمشى أمام الشرفة، وتخاطب الغائب خلف غبار الأبواب الأثرية العالية:

— انصرفوا فلا تخف؛ اطلع يا روح أمك وتسند على أكتاف إخوتك. اطلع؛ الهواء البحرى فى الشرفة يرد روح العليل، اطلع يا ياقوت.

نوفل فى جلسته هذه منذ عاد، لا نام ولا أكل ولا طلع من غرفته. الأكل فى الطبق، والإبريق على الشباك، يرشح ماؤه فى

طبق نحاسى قديم مزخرف الأطراف. جلس يتأمل الشرفة والمرأة والعابرين، ويترقب عودة فانوس المغنى. من شهور لم يمر عليه، شهور كثيرة، ربما سنة، سنون.

الليلة ينتظره، هو لا يصدق انتظاره ولكنه ينتظر. ترك الأكل على الصينية وقال لنفسه: "لو جاء سنتعشى سويا، سأتركه يأكل حتى يملأ بطنه ثم يميل على جنبه ويحكى. سأتركه حتى تنفذ حكاياته".

حكاياته كثيرة. يضحك فانوس ويقول لنوفل:

— توارثها أجدادى، جدى الأكبر كان أول من نفخ فى ناي وأجرى القوس على وتر.
وحكى:

— أحفاد عبد المولى وحدهم يحفظون هذه الحكايات، غيرهم يكذبون. هم كانوا أصحاب الدنيا، وبأيديهم وأمام عيونهم حدث كل شئ. جاء زمن شغلوا فيه الناس بحكاياتهم وبلبلوا أفكارهم، فحرّم السلطان كلامهم، وشتتهم فى البلاد.

مات السلطان وبقوا ولكن بعد أن بدّلوا هيئاتهم وغيّروا أسماءهم. زمان كانت أسماؤنا عبد المولى وعبد الغفار وعبد الستار، الآن أصبح من أسمائنا ونيس وسرحان ويعقوب وفانوس. بدّلنا أسماءنا ولكننا نعرف بعضنا إلى اليوم. بنو عبد يعرفون بعضهم ولا يخلطون فى أنسابهم أبداً، ولهذا ظل فيهم اللسان الحلو وبقيت معهم أصول الحكايات. غيرهم يكذبون، حتى الذين دونوا كذبوا.

صَوَّبَ أَصْبَعَهُ إِلَى رَأْسِهِ وَأَطْلَقَهَا:

— العلم فى الرأس.

— أنت نفسك تكذب أحياناً.

— أنا؟!.. بنو عبد لا يكذبون.

— أحياناً تحكى الحكاية، ثم أسمعك تحكيها لغيرى بشكل مختلف.

— عجيب!

— مثلاً حكاية الأمير فرغلى المرعوش؛ سمعتك مرة تحكيها

بشكل مختلف. قلت إنه لم يكن أميراً وإنما درويشاً، أميراً على الدراويش. ذات يوم خرج الدراويش من خلوته، طلع من مدينته ذات الأبواب التسعة المباركة، وسار وراء الثوب الهفّاف والصوت الجميل الذى يناديه، لم يعرف أن لكل ولى اختباراً تدبره الملائكة. نسى نفسه، وسار خلف أجمل النساء؛ جارية الملك. هكذا بدت له، فسار حتى وقع فى المحذور .

سحبته المرأة إلى الخلاء، وهناك تاه فى الجمال الذى لم تره عين. طاوع نفسه وخلع أسمال الدراويش، ولما همّ بها انشقت الأرض وابتلعتها، فانفتحت بصيرته وعرف أنه وقع فى الشرك. ستر عورته بيده ونظر إلى السماء، سطعت الشمس فى منتصف الليل وتفتحت شرفات السماوات. رأى العيون تطل عليه من كل جانب، وسمع ضحكة إبليس ترن فى الملكوت. كانت وجوه الملائكة حزينة وواجمة.

ندم، ولكن الوقت كان قد فات. نكس رأسه، وانفجرت فقاعة
الخوف في قلبه فرعشت أطرافه. ظلَّت الشمس قائمة على رأس
المشهد صيفا وشتاء كاملين، وهو في مقام الرعشة وسط الخلاء.
ظل يرتعش ويرتعش، حتى ارتجت من رعشته الأرض واهتز
الملكوت. ثم كان أن انفطرت أعضاؤه من الرعشة، وتناثرت في
الخلاء، فغفر له. فتحت الأرض أبوابها لأعضائه المنفرطة، ثم
ختمت عليها الريح فضاغ الأثر. أنت قلت ذلك يا فانوس .

— آه، تقصد ذلك؟.. هذا حدث أيضا يا نوفل.

— عجيب يا فانوس!

ضحك.

— لا تتعجب، فكر.

حاول أن يفهمها فلم تدخل رأسه، جادله:

— عجيب!

ضحك فانوس، مال على جنبه، وعوج طاقيته:

— في حرفتنا أسرار ورثناها عن جدنا عبد المولى ولا

يعرفها غيرنا، سر الأسرار عندنا: "ليس المهم من يحكى، المهم
من يسمع". لو فهمت لعرفت أننا صح، وعرفت أن من دوّنوا
كذبوا. تحيّر نوفل، قلب الجملة في رأسه ولم يفهمها إلى اليوم. لو
جاء فانوس سيقول له: "أشرحها لي".

غريب وجه فانوس؛ عندما يحكى يميل إلى الخلف، ويغطس
سواد عينيه تحت حافة الجفنين خلف الرموش الطويلة، مثل طفل
يغرق بهدوء بين أغصان السيسبان. هل يعذّب الكلام؟! كان يحب

المخبولة الساكنة تحت القوس، ويقول عنها: "مسكينة وقلبها
موجوع". هى أيضا كانت تحبه ولا تخاف منه مثل غيره. حين
تراه تهش فى جلستها وتشير بيدها لتبعد العابرين عن طريقه:
— ابعدوا، الحكيم وصل.

ثم تمسح وتربت الأرض بيدها:
— السجادة طاهرة؛ اجلس يا دكتور .
وتسأله وهى تشير إلى الشرفة الواسعة:
— رأيته؟

لا يجاوب ولا يجلس. ينظر إليها ويمسح شاربه، ثم يرمى
القروش فى حجرها ويستدير. فى فمه كلام ولكنه لا ينطق.
— أعرف يا دكتور؛ علته صعبة وقلوب إخوته قاسية.
طويل، عمامته مائلة ورأسه يتطوح على الجانبين، وطرف
شاله الأبيض يهتز على جلبابه البنى. يخطو نحو الشرفة العالية،
وتلاحقه المخبولة بالكلام:

— ولدتهم بطن واحدة، ولكن قلوبهم قاسية عليه.

يشمر فانوس كمّه، ويسند مرفقه على السور الحجري أمام
البيت الأثرى، رأسه يتطوح وعيناه شاخصتان إلى الشرفة. كانت
المخبولة لا تزال تثرثر، هذه المرة تحدث العابرين:
— ادعوا له، الحكيم عنده.

تتململ قدماه على الأرض؛ فى الرأس كلام، وعلى الشفة
نغم. يقول فانوس لنوفل:

— أحيانا كأننى أراه خلف غبار الشبابيك المقفلة؛ عمائم مائلة
فى الظلال، عناكب وحفيف أثواب وعيون محدّقة. لا أعرف يا
نوفل هل يمشون أم أنهم وقوف، لكننى أراهم فوق السجادة
الداكنة. هو بينهما ناحل مطرق، عمامته ثقيلة على الرأس، وسواد
العباءة ثقيل على كتفيه. جفونه شبه مطبقة، وتحت جفنى عينه
اليسرى تتقلب ومضة ثقيلة وبارقة؛ الياقوتة. كل أخ يمسكه من
يد، طويلان نحيلان، رأساهما مائلان إلى الخلف، وعيونهما
السود تحديق فى العتمة، واسعة وساكنة.

يتعجب نوفل من الكلام. نسى أن يسأله عن المرأة المخبولة.
لوجاء اليوم سيسأله: "هل هى أمه يا فانوس؟".

تتملأ ذقن نوفل على قاعدة الشباك، ويمد نظراته من خلال
القضبان إلى الشرفة. فكر: "آه يا نوفل لو رأيته، هكذا فجأة؛ تنفتح
الأبواب، ويطلع إلى الشرفة وسط أخويه، وتبرق الياقوتة فى
الظلام". اقشعرّ جلده.

رفع رأسه فرأى القمر فى الأفق، كأنه كان ينظر إليه؛ وجه
وابتسامة ساخرة. لعن الأكتع وتعجب من حيله الكثيرة. نفخ،
وسأل نفسه: "لماذا تأخر فانوس، هل سافر يا ترى؟!".

لسحبة القوس على الرابابة ارتعاشة يشرئب لها القلب. زمان
مرّ القوس على الوتر ولم يكمل النغم، وظل قلب نوفل معلقا
ينتظر، على جفونه غبار سنين طويلة غاب فيها فانوس وانقطعت
أخباره. قال لنفسه: "لأبد أن صوته يجلجل الآن فى مكان ما؛ ربما
كان هناك فوق صخرة الأسرار السوداء، تطير الريح طرف شاله

الأبيض، يسند ربابته على رأسه بيد، ويحرك القوس عليها باليد الأخرى. يعزف ويجلجل صوته، ويعيد الحكايات من أولها، رجل مثله لا يموت".

فكر نوفل: "لو أنصت جيداً لسمعت؛ ثمة ارتعاشة قوس خلف الليل والبيوت، تكاد الأذن تمسك الصوت، لكنها شاخت، خسارة. بالتأكيد هناك رجل فى المدينة يمكن أن يسمع بشكل أوضح، ولكن هل ينتبه؟".

المدينة نامت.

زمان قال له فانوس:

— الوحدة ستعض قلبك وتتهش جفونك، وتظل عيناك شاخصتين طوال الليل حتى يوجعك النظر.
يومها قال له:

— رأيته بعينى هاتين يا فانوس، فكيف أستطيع أن أغفر؟!
فانوس فهم وهز رأسه، أشار بوجهه ناحية بيت القاضى وقال:
"كان لا يرحم القاتل، ولا الزانية".

نسى يومها أن يحدث فانوس عن الولد. لو جاء الليلة سيقول له: "لم أكن وحيداً تماماً يا فانوس".

الولد كان يأتى أحياناً، غالباً يحدث ذلك فى آخر الليل. يدق الباب ويدخل، يأكل ما يجده ويشرب من الإبريق. سهر مع أصحابه فى المقهى وتأخر فجاء لينام.

هو كان يفتح الباب ثم يدير ظهره وينام. الحقيقة.. الحقيقة؛ لم يستطع أن ينام ولا مرة. كان يدير ظهره، ويغلق عينيه،

ويتخبط فى عتمة أفكاره تحت الجفون المغلقة. لم يجروا أبدا أن يصارحه، ولا وجد إجابة على سؤاله. أحيانا كان ينهض ليغطيه. هل كان الولد يحبه أكثر من أمه؟.. من يستطيع أن يعرف؟!.. كان قد أصبح رجلا وقلوب الرجال أسرار. حتى سفره لم يعلم به إلا بعد مدة، كان قد مر شهر ولم يره فذهب إلى الجارية يسألها، جاوبته: "سافر". أَلقت الكلمة فى وجهه وكشّرت، كأنها تفضل ألا تبوح بها. أدار لها ظهره وانصرف.

سافر مثل غيره، وحتى الآن يسافرون رغم الحرب، طائرات كثيرة تعبر فوق المدينة طوال النهار والليل. سأل نفسه: "هل يرجع؟". كان سفره إلى الكويت ولما قامت الحرب رآه أحد أصحابه فى العراق وقال: "ناديته ولم يسمع، كنا فى زحام وهرج وسط آلاف الخلائق، بعضنا كان يسرع صوب الأرين". الجارية أخبرته بذلك فلعنها فى سره؛ متى صدقت؟!

غفا وهو ينتظر، وفى غفوته سمع خطى وحفيف ثوب، ورأى الياقوتة تبرق على الأرض. مد يده من خلال القضبان، ولكنها كانت بعيدة. انحسر وحاول، ثم سمع خبطة على الجدار ففتح عينه، قال: "عله فانوس". كانت المخبولة ترمى الحصى على الطريق.

خلف القضبان ساحة واسعة وشرفات عالية غارقة فى الظلال، وصوت المخبولة يزحف من تحت القوس وهى تهش الظلال: "ابعدو". خافت وتعبت، والتصقت بجدار القوس.

قام. كان جسده مخدرا، ويده ترتعش. أخفى الرعشة في جيبه، وأمسك الطبق بيده الأخرى. فكّر: "المخبولة جوعانة، وهو تأخر، لو تركت الطعام إلى الصباح سيفسد". تخبّط في عتمة الممر الدوّار وطلع إلى الساحة.

كان يمشى باحتراس صوب القوس: "لو هناك أقواس أثرية مثله؛ لرقد الولد تحت أحدها، ونجا من قصف الطائرات وطلقات المدافع، مثل هذا القوس لا يهده زلزال". قلب أذنيه في الآفاق وحاول أن يتسمّع الأصوات التي تهب من خلف المدينة: "هل عزف أناشييد أم طلقات رصاص يا ترى؟".

وهو يقبّل وجهه ليسمع لمحت عينه القمر، فزادت رعشة يده، ولعن الأكتع، ثم ارتجفت خطواته حين قصفه صوت المخبولة ووقفت له:

— مكانك يا كلب؛ الحرس على الباب.

مد يده بالطبق:

— طعام.

— ابعد.

— طعام؛ سمك ورز.

— قلبه موجوع، والبطن زاهد.

— لك، كليه.

جلست، وزحفت حتى التصق ظهرها بالجدار:

— ابعد، لا تدنس السجادة برجليك، ولا توجع رأسى بالكلام،

سأخبره عندما يطلع.

قرفص، مد يده ومطّ ظهره، ووضع الطبق قربها على الأرض:

— كلى. كنت احتفظ به لفانوس لكنه تأخر، ربما سافر، الولد أيضا.

تشمّمت، ولفّت الشال على رأسها، كانت عيناها تائهتين. حرك يده، ولكنه لم يعرف لأى شئ يشير:

— تركنا وغاب.

— قلت لك ابعد، لا توجع رأسى.

— الدكتور؛ فانوس.

زحف خطوتين إلى الخلف وهى تمد يدها. أخذت الطبق، ودلقت السمك والرز على طرف ثوبها، ثم رمت الطبق الفارغ فى وجهه.

— أحيانا كان يتأخر، لكنه كان يأتى دائما.

بدأت تأكل.

— كان يأتى فى آخر الليل جوعان، يأكل ما يجده ويشرب من الأبريق.

زمجر صوت فى حلقها، وسال اللعاب من زاوية الفم. سكت حتى هدأت، ثم أشار إلى بيت القاضى ذى الشرفات العالية:

— كان يحبه؛ قال لى عنه: "الياقوتة أضاعت فى عينه"، الدكتور قال لى.

تردد قبل أن يسألها:

— أنت أمه؟

صرخت فى وجهه:

— ابعد يا جاسوس، لا تقرب السجادة.

زادت رعشة يده. قام، أخذ الصينية الفارغة، وتمهل أمام الشرفة الأثرية. لم يستطع أن يرفع رأسه، نكسه وتوسل إليه فى سرّه: "احكم بالحق، لا تظلمنى".

بسروال مبلول وجسد هزمته الكلاب؛ استقر عبّاس فوق
عربته على الرصيف، قرب مدخل الشقّ. نفس المكان الذى يفرش
فيه بضاعته فى النهار. وحيد؛ حتى المرأة خطفتها الكلاب منه.
هى ذى الآن تتهارش تحت المصباح فى آخر الشارع، وتتلفّت
نحوه فى مكر وشماتة. يعرفها واحدا واحدا، منذ عهد الصحراء
يعرفها، لن يفلت واحد من انتقامه، ذات يوم سيثار.

الآن يشرب زجاجته الأخيرة، ويتأمل الشبابيك المفتوحة على
ليل الصيف. سيجارة تومض، ورجل سهران فى شباك بعيد، مثل
شاخص خشبى مرفوع فى تبة ضرب النار. أدار ظهره للمشهد،
وشتم الرجل السهران: "كلب مثلم".

تأمل نور النيون على لافتة دكان الحاجة ويكا: "سوبر
ماركت العهد الجديد". امرأة قادرة لم تغلبها الدنيا؛ تأكل ما تطلبه
نفسها، وتتحرك على الأرض بثبات مثل مدرعة. الناس يشبهون
تلك الأشياء تماما، بعضهم يذكرّك بالرشاش الذى لا تحس
بوجوده، حتى يفاجئك بطلقاته من بين أكياس الرمل. بعضهم
طائرات، هناك من يشبه الآر.. بى.. جيه؛ ثقيل الحركة لكن
طلقاته صاعقة. الكثيرون مثل سيارات الزيل القديمة، تميل على
الجانبين وتتغرز فى الرمال.

وأنت ماذا تشبه يا عباس؟. فكّر ووجدها: "شظية، نعم شظية تدمى وتذبح، ولكنها لو استقرت على الأرض، تصبح لعبة فى أيدي الأولاد".

تطلع إلى اليمين وسأل خيال نوفل: "وأنت يا عجوز النحس؛ هل تعرف ماذا تشبه؟.. ربما عربية زيل قصفتها القنابل، فوانيس معتمة، وعجلات خائرة مغروزة فى الرمل، وحديد مصهور. شئ لا لزوم له، مجرد قطع غيار".

فى شقالباط ثقيل سكران؛ طارت الشظية واستقرت قرب خيال السيارة المقصوفة. غلبه السكر فلم يستطع أن يكمل شقالباطه. رقد على ظهره وخبط الأرض بيده ذات الإصبع الوحيدة:

— اطلع يا نوفل. إلى أين تهرب منى؟! سألبس لك وجه القمر، أنزل تحت الأرض، وأطاردك فى شوارع المدينة، وأفاجئك عند كل منعطف، وأنزلق إليك من الشبابيك، وأجزّ طرف لسانك الذى لا يكلمنى.

مرة أخرى طوت الإوزة جناحيها، واستقر الرأس على قاعدة الشباك قرب الإبريق. سكن خلف القضبان، واستسلم الجبين لهبات النسيم الباردة في آخر الليل. العينان فقط تتقلبان في العتمة والظلال.

لا يعرف هل يفكر أم يحلم: "فانوس يمكن أن يتأخر أكثر من ذلك، ولكن لا بد أن يأتي، قلبي يحدثني بذلك". فانوس نفسه كان يفكر بهذه الطريقة؛ قال له: "إذا حدثك قلبك طامعه". وقال: "من يستطيع أن يفرق بين تخاريف هذه المرأة وصدقها؟ العالم أسرار. وما يدريك يا نوفل ماذا يمكن أن يحدث وأنت في مجلسك هذا؟.. ذات ليلة تكون خلف الشباك هكذا، لا تفكر ولا تنتظر شيئاً، وفجأة تنفتح هذه الشرفات، وتبرق الياقوتة في الظلام".
اقشعرّ جلده.

كل أسرار الحكايات القديمة يعرفها فانوس، حتى حكاية القاضي لا يعرفها غيره في المدينة. قال: "جدي الأكبر شهد زمانه، جلس على كرسى القضاء وهو طفل بلا شهوة. مرة رفّت إحدى عينيه أمام زانية جميلة فقلعها. كان هو في الشرفة يسمع، وهي في الساحة، والناس ينتظرون حكمه. لما رفّت عينه سكت وطال سكوته حتى ظن الناس أنه انخرس، تململ في مجلسه، ثم

مد يده فقلع العين التى رقت ورماها أمام الناس، ثم استوى على الكرسى وحكم. كان لا يرحم القاتل ولا الزانية.

أُتُعرف لماذا سمّاه الناس ياقوت؟.. وضع بين جفنيه ياقوتة حمراء فى حجم حبة العين، حتى لا يقول الناس: قاضينا أعور، من عدله أضاعت الياقوتة بين جفنيه فأبصر بها، ولهذا سمّاه الناس ياقوت.

من يستطيع أن يصف ما حدث فى ذلك اليوم؟!.. طلع القاضى إلى الشرفة ومعه دفاتره وأقلامه، جلس على الكرسى وانعقد الديوان، كان فى الساحة سارق قبض عليه الحراس وقبّوه بالحبال ورموه أمام القاضى. لما رأى اللص القاضى بكى وطلب الرحمة: "احكم بالحق".

تحيّر القاضى من كلامه وطلب المدينة كلها للشهادة. كل الناس جاعوا وانحشروا فى هذه الساحة، كلهم. لم يترك فى المدينة طفلا يستطيع أن ينطق كلمتين إلا وطلب شهادته، المدينة كلها. ظل الديوان معقودا صيفا بأكمله، والشمس فى مكانها واقفة على رؤوس الخلائق، والحراس حول الساحة. سمع القاضى، لكن كل كلمة كانت تزيد حيرة. صيف كامل وهو يسمع ويقبّل أوراقه ودفاتره، والناس ينتظرون.

وفجأة، هكذا فجأة؛ برقت الياقوتة بين جفنيه فرأى وحكم. يومها أطلق السارق، وسجن المدينة كلها".

كان لا يزال مستلقيا على ظهره، مصّ القطرات الأخيرة من الزجاجة وسندها تحت إبطه، ثم خبط الأرض بباطن كفّه: "اطلع يا نوفل، لا فائدة من الهرب، ساعة وتطلع الشمس ويسوقك النهار إلى هنا طائعا كالكلب، وقتها لن أرحمك".

نهره:

— اطلع.

ثم لحس شفثيه وحاييله، كان يحاول أن يقنعه: "إذا كنت تخجل أن تتكلم أمام الناس حتى لا يضحكوا على خبيثتك فاطلع الآن، الرصيف خال وأنوار الشبائيك مطفأة، الكل ناموا. اطلع وأرني أسنانك، الآن لا يراك غيري".

مصّ هواء الزجاجة وسخر منه: "لا تظن أنني أريد منك أكثر من ذلك، أنت لا تساوى شيئا ولا تصلح لشيء. زمان؛ كنا نخلع أبواب البيوت المقصوفة والمهجورة، نركبها على مداخل ملاجئنا تحت الأرض أو ننام عليها. أنت أيضا لم يعد منك أكثر من ذلك، باب أو شباك، يد أو رجل؛ قطع غيار. ما فائدة اليد أو الرجل لرجل مثلك؟!.. هل بقي لديك من الهمة ما يكفي لتحرك يدك وتهشّ نبابة عن وجهك؟!".

نفخ شذقيه بهواء الزجاجاة؁ ثم لبس له وجه القمر؁ وفاجأه
بضحكة:
— اطلع يا نوفل وسلم نفسك؛ المدينة محاصرة.

هبت دفقة هواء فخبط خشب الشباك الحائط. رجف قلب
نوفل وهو يفكر: "سجن المدينة كلها وأطلق اللص!!"، فيها حكمة
لا يفهمها. لو جاء فانوس سيقول له: "وهذه أيضا؛ اشرحها لى".
زمان سألته:

— وعينه الأخرى المقلوعة؛ العين الحية، أين راحت يا
فانوس؟

— ربما تحولت إلى ياقوتة أيضا، ولكن لم يعثر عليها أحد
حتى الآن.

— وسيف الأمير فرغلى، هل وجدوه؟

— السيف نائم فى الضريح، نائم وحده، ولا شئ غيره.
— والأمير؟

— ركض به حصانه وطار.

يفكر نوفل: "فى أى سماوات يركض الآن الحصان بالولى
الحزين؟.. وإلى أى اتجاه تسوقه الريح؟. هل شاخ يا ترى، وشاب
شعره فأصبح مثل خصل السحاب المتناثرة فى ليل الصيف؟.
ترى من يطعمه إذا جاع، ومن يسقيه فى وحشته السماوية
الطويلة؟".

— ويداه يا فانوس؟

— لم يعثر عليهما أحد، ربما أكلهما وحش.

قرب الفجر مرّ طابور الكلاب، المشهد المألوف فى نهاية كل ليل. طابور طويل اختلط فيه البنى والأسود والأبيض. أنوف مطرقة تتشمم الأرض، وعيون مأكرة تراقب جانبى الطريق.

نهض عباس وتراجع ببطء وحذر حتى أسند ظهره إلى الحائط. هبّت رياح الصحراء ففكّت الأربطة وعرت الأطراف النازفة. كتم أنفاسه حتى لا ينتبه أحدهم إلى وجوده. كان متوثبا مستعدا لبدء المعركة فى أى لحظة، لكنه كان يتمنى أن يمر الموقف بسلام. راقب المرور البطئ للطابور، ولاحظ الذبول المطمئنة المنسدلة على الأعجاز الضامرة، تماما مثل كلاب الصحراء التى التهمت الأعضاء المبتورة. دم.

فكر فى نوفل ذى الأنياب، وحاول أن يخمن أى واحد هو فى هذا الطابور الطويل: "بالتأكيد يتحول فى الليل إلى كلب، يظهر على حقيقته ويكشف عن أنيابه. لو انفردت به لفاجأته وأمسكت نيله وطوّحت به فى الهواء، لكنه الآن يحتمى بالجماعة ولهذا يمشى مطمئنا هادئا".

لعق مرارة حلق الزجاجاة الفارغة، وراقب القمر وهو يغطس خلف البيوت، كأنه طلقة مضيئة تتطفئ فى مياه البحر؛ طلقة إنذار.

أسلم نفسه لكل الوجوه التى مرّت على ذاكرته؛ كثيرون دقّوا
بأيديهم على خشب الشباك فى أواخر الليالى، واستعطفوه:
— الموعد قرب.

أغنياء لم يخلوا عليه، وأصحاب سطوة وعدوه بالكثير. حول
كل واحد رجال أقوياء ووجهاء، يفتحون له باب السيارة
ويفسحون الطريق أمامه. ينتظر بعض الرجال مع نوفل، يحايلونه
ويتوددون إليه، ويثرثرون أمامه فى أسرارهم وأسرار رجلهم بلا
تحفظ. بينهم كان يحس بالأمان.

يفرد القماش على الحائط خارج الدار فى الساحة الواسعة،
ويكتب اللافتات. هو فى المقدمة؛ خطوة إلى الأمام، وخطوتان إلى
الخلف. تعجبه الكتابة فيرجع أربع أو خمس خطوات، ويهزّ رأسه
ويصفر. هم خلفه؛ إلى الأمام وإلى الخلف، يربّتون كتفيه
ويناولونه السجائر:

— فنّان يا نوفل.

خلف الشبابيك نساء، وعلى الأرصفة أطفال. على القماش
كتب أجمل الكلام وعلّقه فى الهواء. يسهر ويصحو مع الفجر.
أيامها كان فانوس يراه مشغولا فيزوغ منه؛ يرفع يده بالسلاّم من
بعيد ويواصل طريقه.

لم يسأل نفسه وقتها؛ إلى أين يمضى؟
هو لا يتعب ولكن الرجال يتعبون، بعضهم يدخل غرفة نوفل
ليستريح ويشرب القهوة من يد الجارية.
وقتها لم يكن يعرف.

الآن انصرفوا. كانت ذبولهم تهتز هناك، بعيدا.

ركب عباس الخنزيرة ونزل من فوق الرصيف، وقف في وسط الشارع ويده في وسطه، لعنهم بصوت عال: "كلاب". ساعة ويطلع الصباح، تشرق العيون وتبرز كل الأسلحة من مكانها؛ مدرعات وهاونات وطائرات ورشاشات. يعزف راديو الحاجة ويكأ لحن الصباح ويبتسم الجميع، بينما يتلاحم السلاح الأبيض وتطير الشظايا: "ازرز".

فكر: "سيأتى نوفل وحيدا كما ولدته أمه، سأقول له رأيك وسطهم تهز ذيلك، كمنت لك على الرصيف، وعرفتك بينهم وأنت لم ترنى، ومن قبل رأيك بينهم فى الصحراء. الآن أراهنك وأراهن ويكأ، افتح فمك وسنرى؛ أنياب كلب".

ساق العربة فى مناورة بارعة. دورة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، ثم انطلاقة قوية وهو فارد ذراعيه والعجلات تجلجل على الأسفلت. ضحك: "ازرز".

سمع صوت العجلات ففزع؛ طلع الفجر.

رأى عربية الزبالة تبرز من تحت القوس الحجرى، والكناسين ينظفون الأرض بهمة الصباح، وسمع زقزقة جماعية على أسلاك الكهرباء. قام، أطفأ المصباح. كان متعبا وعيناه خابيتين: "لم أنم، انتظرت بدون فائدة. ربما سافر".

تذكر أيضا أنه لم يأكل طوال الليل، وخمن أنه سيجوع قبل أن تفرغ الحاجة ويكا من إفطارها. كانت الإوزة تتمطى على ملامح وجهه وتقلب منقارها على جبينه. عاتبه فى سرّة: "آه منك يا فانوس؛ ضيّعت ليلتى، والآن لا أستطيع أن أنام".

المخبولة أيضا انتبهت على جلجلة العربية وحفيف أجنحة الملائكة على الأسفلت:

— وعليكم السلام يا أهل الله، رشّوا الساحة بالماء، وعلّقوا الزينة.

ونادت على الشاخصين فى العتمة خلف غبار الشبابيك العالية المقفلة:

— يا أولاد ، سنّدوا أخاكم وأجلسوه على الكرسي.

ازرز.. تعبان. الجسد ثقيل والصوت مشروخ، والعين تدمع
من السهر والسكر. فكّر: "كلام الحاجة ويكا طيّر النوم من رأسى،
آه لو كانت تخذعنى. لو صدقت سأقول لها: الدخلة بعد أسبوع".

دحرج أحجار الطريق بقدميه، وجاهد وهو يفتح عينيه
المتعبتين بالسهر. فكّر: "آه لو وجدتها". وحين مرّ بضريح الشيخ
فرغلى قرأ له الفاتحة ولعن الجارية في سرّه، وسأل نفسه: "ترى
من أبوه؟".

لم يكن نوفل قد انتهى من رصّ بضاعته حين برز له الأكتع. كان راديو الحاجة ويكا يذيع اللحن التمهيدي لبرنامج "لحن الصباح".

بنظرة واحدة كارهة أدرك كل منهما أن اللحظة الأخيرة تقترب. تلفت نوفل ورأى اللافتة لا تزال في مكانها. الرعشة في يده، والنبض الكهربائي في شفتيه. واجهه: — ابعد.

نوفل لم يدر كيف انزلت الكلمة من فمه. الأكتع دب فيه الحماس، فضحك وقال للناس: — أخيرا الإوزة باضت؛ نطق.

التفاته أخرى. كأنه رأى الجارية تبحث عنه. هل عرفت يا ترى؟ لم تكن عنده فرصة ليتأكد، كان الخطر يقترب. وقف وفرد طوله في مواجهة الأكتع: — لا تقترب.

— باضت يا حاجة ويكا ونطق، أول مرّة يعملها. حاول أن يهجم؛ أن يهز كتفيه ويرقص بطنه ويئز مثل طائرة، ولكنه كان حزينا وطائرتة بدون وقود. اكتفى بشقالباط ثقيل، وضحك وهو مستلق على ظهره:

— ازرز ...

وقف له نوفل، اخفى يده المرتعشة في جيبه، وفرد اليسرى
في اتجاه وجه غريمه:

— ابعد، قرد سكران.

كانت ترتعش أيضا.

— ازرز.. رأيتك بينهم في الليل، عرفتكَ وسطهم وقلت: "هو
ذا نوفل". اليوم سأقطع ذيلك وأخلع أنيابك.

ضربت الرعشة كل البدن. رجع خطوتين وأسند ظهره إلى
الحائط حتى لا ينفطر:

— قرد مقصوص الأطراف.

تلفت، لم يجد الجارية، كأن الأرض انشقت وبلعتها.

— ازرز.. كلب.

هجم الأكتع عليه، تشقلب وضربه بمؤخرته في بطنه.

تلفت، لم يستطع بصره أن يصل إلى اللافتة، الأرض خلاء
والأفق بلا شمس، عتمة.

اعتدل الأكتع، ضحك ورجع خطوتين. شقلباظ وضربة
ممائلة.

ومضة، وشبابيك تنفتح في العتمة، هل كانت الياقوتة؟..
احكم بالحق، لا تظلمنى".

شقلباظ وضربة ثالثة.

انفطر على الرصيف، عين جاحظة ونقطة دم على زاوية
الفم.

ركبه وتتطط على صدره:

— بم برلم برلم ...

شدته الحاجة ويكا بيد، وضربته بالأخرى على رأسه:

— انهض.

— الإوزة باضت، لو سمعت لتعجبت؛ شتمنى.

رفسته فى رأسه:

— انهض.

— تعالى، الآن سأريك أنياب الكلب. بم برلم برلم ...

صرخت، فقام وبين أسنانه بقايا ضحكة. هى لم تضحك،

انحنت تجس البدن المنفرط وتتأمل العينين. مسحت براحتها على

الجفون فطاوعتها وانسدلت.

— مات.

اندهش الأكتع واصفر وجهه. لم يكن يظن أنه يحمل كل هذا

اللؤم فى رأسه. لطم نفسه بيده ذات الإصبع الوحيدة، وتأرجح

على أليتيه من الخوف:

— الكلب؛ عملها!!.

انتهت

هذه الرواية

يسند نوفل ذقنه على قاعدة الشباك، ومن خلال القضبان يراقب المرأة المخبولة تحت القوس الحجري والأخوة المتطوحين فى الظلال خلف غبار الشبائيك الأثرية، ويتسمّع عزف الربابة وصرخة فرغلى الأخيرة فوق صخرة الأسرار.

نوفل لا يستطيع أن يدير ظهره. هو ينتظر، ولكنه فى الحقيقة لا يصدق انتظاره، هو فقط يترقب ما سيفعله به القرد الأكتع الذى يعربد فى المدينة. القرد فى طقوسه الليلية الغريبة يترقب أيضا الكلب ذا الأنياب. ثمه شئ يخصهما معا ولا نعرفه، وربما كانا هما أيضا لا يعرفانه. وخلال يوم واحد هو زمن الرواية يتقدم كل منهما فى اتجاه الآخر.. خطوة خطوة حتى يلتقيا فى نقطة الدم.

محمد ناجي

صدر له:

خافية قمر

دار الهلال - مصر 1994

صدرت بالاسبانية عام 2007 بعنوان: El escondite de Qamar

عن: Editorial Comares – Granada

لحن الصباح

دار مصر العربية - مصر 1994 * الطبعة الثانية - مكتبة الأسرة 2005

* صدرت بالاسبانية عام 2005 بعنوان Cancion de manana عن:

Instituto Egipcio de Estudios Islamicos * صدرت بالفرنسية

عام 2006 بعنوان La melodie de matin عن: L - Paris

Harmattan

مقامات عربية

* دار الهلال 1999 * الطبعة الثانية - دار نارة - الأردن 2006

العايقة بنت الزين

* دار الهلال 2001 * الطبعة الثانية - مكتبة الأسرة 2006

رجل أبله.. امرأة تافهة

* دار الهلال 2002 * الطبعة الثانية - دار نارة - الأردن 2006.

الأفندي

* دار الهلال 2008 * الطبعة الثانية - مكتبة الأسرة 2009

mohammednagy@hotmail.com

Lahnu-l-sabáh

Muhammad Nagui

Traducción:
Rafael Ortega Rodrigo

- Bomm, boorroboom, boorroboom...

La señora Wika le agarró con una mano y con la otra le dio un coscorrón:

- ¡Levántate!
- La oca ha puesto un huevo: si lo hubieras escuchado no te lo habrías creído. ¡Me ha insultado!

Le dio una patada en la cabeza:

- ¡Levántate!
- Ven, te voy a enseñar los colmillos del perro. Boom, boorroboom,...

Ella gritó, y Abbas se levantó con la mueca de una sonrisa entre los dientes. Ella no se reía. Se inclinó a tocar el vientre destrozado mirando atentamente los ojos y acarició con la palma de la mano los párpados que cedieron y se cerraron.

- Ha muerto.

El Tullido se quedó estupefacto y pálido. Nunca pensó que Nawfal pudiera ser tan ruín. Se abofeteó con la mano de un solo dedo, se balanceó sobre sus nalgas, asustado:

- ¡El hijo de perra! ¡Lo ha hecho!

Nawfal se le plantó delante. Ocultó la mano derecha temblorosa en el bolsillo, extendió la izquierda en dirección al rostro de su rival:

- ¡Vete, mono borracho!

También le temblaba la mano izquierda.

- Fiuuu... Te vi entre ellos por la noche. Te reconocí en medio de ellos y me dije: Ese es Nawfal. Hoy te cortaré el rabo y te arrancaré los colmillos.

El temblor hizo vibrar todo el cuerpo. Retrocedió dos pasos y apoyó la espalda en el muro para no resquebrajarse:

- ¡Mono amputado!

Se dio la vuelta y no vio a Yariyya, como si la tierra se hubiera abierto y se la hubiera tragado.

- Fiuuu... ¡perro!

El Tullido le atacó, dio una voltereta y le golpeó con el trasero en el vientre.

Se dio la vuelta y su vista no pudo llegar hasta el cartel; la tierra estaba desierta y el horizonte sin sol. Oscuridad.

El Tullido se recompuso, rió y retrocedió dos pasos; una voltereta y un golpe similar.

Un rayo de luz, ventanas que se abren en la oscuridad. ¿Era el rubí? Juzga con justicia, no me trates injustamente.

Otra voltereta y un tercer golpe.

Nawfal se alejó hacia la acera. Tenía los ojos fuera de las órbitas y una gota de sangre en la comisura de los labios.

Abbas se subió sobre el pecho de Nawfal haciendo cabriolas:

No había terminado Nawfal de amontonar su mercancía cuando apareció ante él el Tullido. La radio de la señora Wika emitía la sintonía del programa "Canción de mañana". Con una única mirada renuente ambos supieron que el instante final se acercaba. Nawfal se volvió y vio que el cartel seguía en su sitio. La mano temblorosa y el impulso eléctrico en los labios. Le hizo frente:

- ¡Vete!

Nawfal no supo cómo resbaló la palabra de su boca. El Tullido cobró vigor, se rió y le dijo a la gente:

- ¡Por fin, la oca ha puesto un huevo y ha hablado!

Otra vuelta. Le había parecido ver a Yariyya buscándole. ¿Sabrá algo nuevo? No tuvo ocasión de asegurarse, el peligro se acercaba. Se puso en pie cuan alto era para enfrentarse al Tullido:

- ¡No te acerques!

- ¡Ha puesto un huevo, señora Wika, y ha hablado! ¡Es la primera vez que lo hace!

Intentó lanzarse sobre él, encoger los hombros, hacer vibrar el vientre y zumbiar como un avión, pero estaba dolorido y su bombardero sin combustible. Se contentó con una voltereta pesada y se rió tumbándose sobre la espalda:

- Fiuuuu....

Hizo rodar los cantos del camino con los pies, se esforzó en caminar abriendo los ojos cansados por la noche en vela. Pensó: "Ay, si la encontrara". Y al pasar por la tumba del jeque Fargali le recitó el Exordio del Corán y en su interior maldijo a la Esclava. Se preguntó: "¿Quién será el padre de él?".

¡Fiiuuu!... Abbas está cansado. El cuerpo pesado y la voz ronca, los ojos llorosos por el insomnio y el alcohol. Pensó: “Lo que me contó la señora Wika no me ha dejado dormir: ¡ay! Si me estuviera engañando o si fuera sincera le diría: “La noche de bodas será dentro de una semana”.

Escuchó el ruido de las ruedas y se asustó; llegó el alba.

Vio el carro de la basura que sobresalía bajo el arco de piedra y los barrenderos limpiando el suelo con el celo de la mañana. Escuchó un trino colectivo en los cables de la electricidad. Se levantó y apagó la lámpara. Estaba cansado y tenía los ojos como platos: “No he pegado ojo, he esperado en balde. Quizás se ha marchado de viaje”. Recordó que no había comido en toda la noche y supuso que pasaría hambre antes de que la señora Wika acabara de desayunar. La oca se pavoneaba ante las facciones de su cara y revolvía el pico sobre su frente. Le reprochó en su interior: “¡Ay Fanus, me has hecho perder la noche y ahora no puedo dormir!”.

La Loca también se levantó con el tintineo del carro y con el roce de las alas de los ángeles sobre el asfalto:

- ¡Adiós, buena gente! ¡Regad la plaza con agua y colgad los adornos!

Se dirigió a los dos puntos fijos en la oscuridad tras el polvo de las altas ventanas cerradas:

- ¡Hijos míos, sostened a vuestro hermano y sentadlo en la silla!

Ahora se han marchado. Sus colas todavía se balancean allí, a lo lejos. Abbas subió a la Marrana y bajó de la acera, se detuvo en medio de la calle con las manos en la cintura y les maldijo en voz alta: “¡Panda de perros!”.

Una hora y ya será de día; los ojos brillarán y las armas surgirán de sus escondites; carros blindados, morteros, bombarderos y ametralladoras. En la radio de la señora Wika sonará “Canción de mañana” y todos sonreirán, mientras las armas blancas combatirán y volará la metralla: “fiuuuu”.

Pensó: “Nawfal vendrá sólo, tal y como su madre lo trajo al mundo, y le diré que le vi en medio de ellos balanceando el rabo, te aceché escondido en la acera, te reconocí en medio de ellos y tú no me viste; y antes te había visto con ellos en el desierto. Ahora me apuesto contigo y con Wika a que abres la boca y veremos los colmillos de perro”.

Condujo el carro en una hábil maniobra; una vuelta a la derecha y otra a la izquierda; después una fuerte salida desplegando los brazos mientras las ruedas resonaban sobre el asfalto. Se rió: “¡Fiuuuu!”.

Nawfal no se cansa, pero los hombres sí y algunos entraban en la habitación de Nawfal para descansar y beber el café que preparaba Yariyya.

En esa época todavía no sabía nada.

Se entregó a todos los rostros que pasaron por su memoria, muchos golpearon con las manos la madera de la ventana al final de las noches, y trataron de ganarse su simpatía:

- Se acerca la hora.

Ricos que no le escatimaron nada, gente influyente que le prometieron mucho. Todos rodeados de hombres importantes y distinguidos que le abrían las puertas del coche y le despejaban el camino. Algunos hombres esperan junto a Nawfal, le embaucan y tratan de ganarse su afecto, chismorrean ante él de sus secretos y de los de su jefe, sin reservas. Entre ellos se sentía seguro.

Extiende la tela sobre el muro, fuera de la casa, en la explanada y caligrafía los carteles. Él está a la cabeza: un paso hacia delante y dos pasos hacia atrás, le gusta la escritura y retrocede cuatro o cinco pasos, sacude la cabeza y silba. Ellos están tras él, avanzan y retroceden, le dan palmaditas en los hombros y le ofrecen cigarrillos:

- ¡Eres un artista, Nawfal!

Hay mujeres en las ventanas y niños en las aceras. Escribió las más bellas palabras sobre la tela y la suspendió en el aire. Pasa las noches en vela y se despierta con el alba. Por aquel entonces, Fanus le veía ocupado y le evitaba; le saludaba de lejos y seguía su camino. Entonces nunca se preguntó adónde iba Fanus.

Al rayar el alba, pasó la fila de perros, la escena acostumbrada al final de cada noche. Una larga fila en la que se mezclan el marrón, el negro y el blanco. Hocicos cabizbajos que olisquean la tierra y ojos astutos que vigilan los lados del camino.

Abbas se levantó y retrocedió despacio y con cuidado hasta apoyar la espalda en el muro. Soplaron vientos del desierto, se rompieron los ligamentos y quedaron al descubierto las sanguinolentas extremidades. Contuvo la respiración para que ninguno advirtiera su presencia. Se sentía reanimado y dispuesto a comenzar la batalla en cualquier momento, pero deseaba que la situación transcurriera en paz. Vigiló el paso lento de la fila y observó los rabos confiados que colgaban sobre las delgadas partes traseras, completamente igual que los perros del desierto que devoraron los miembros amputados. Sangre.

Pensó en Nawfal, el de los colmillos, e intentó adivinar cuál de ellos era en esa larga fila: "Seguro que por las noches se transforma en perro, se muestra tal como es y enseña sus colmillos. Si me las viera a solas con él le sorprendería, le agarraría por el rabo y lo lanzaría por los aires, pero ahora se refugia en la jauría y por eso va confiado y tranquilo".

Lamió el cuello de la botella vacía y amarga, y observó la luna que se sumergía tras las casas como si fuera una bengala que se apaga en las aguas del mar, un disparo de advertencia.

hambriento? ¿Quién le dará de beber en su larga soledad celestial?”.

- ¿Y sus manos, Fanus?
- Nadie las encontró, tal vez se las comió alguna alimaña.

Sopló una ráfaga de aire y la madera de la ventana golpeó el muro. A Nawfal le tembló el corazón y pensó: “¡¡Encarceló a toda la ciudad y puso en libertad al ladrón!!”. Esto encierra una moraleja que él no comprende. Si llegara Fanus le diría: “Y explícame esto también”.

Hace tiempo, le preguntó:

- Y el otro ojo, el que se arrancó, el ojo vivo, ¿dónde fue a parar, Fanus?
- Tal vez se convirtió en rubí también, pero nadie hasta ahora lo ha encontrado.
- ¿Y encontraron la espada del príncipe Fargali?
- La espada duerme en la tumba, duerme sola, no hay nada más.
- ¿Y el príncipe?
- Su caballo se lo llevó al galope y emprendió el vuelo.

Nawfal piensa: “¿A través de qué cielos galopa ahora el caballo con el triste santón? ¿En qué dirección le llevará el viento? ¿Será que ha envejecido y encanecido su cabello y ahora es como los racimos de nubes esparcidos en una noche de verano? ¿Y quién le dará de comer cuando esté

Abbas seguía echado de espaldas, chupó las últimas gotas de la botella y la sujetó con el sobaco, después golpeó el suelo con la palma de la mano: “Sal, Nawfal, es inútil huir. Dentro de una hora saldrá el sol y el día te conducirá hasta aquí, dócil como un perro y entonces no tendré piedad de ti”.

Le recriminó:

- ¡Sal!

Después se lamió los labios y quiso engañarle, intentando convencerle: “Si te da vergüenza hablar delante de la gente porque se reirían de ti, sal ahora. La acera está vacía y las luces de las ventanas están apagadas, todos duermen, sal y enséñame tus dientes, ahora sólo te veré yo”.

Aspiró el aire de la botella y siguió burlándose de él: “No creas que quiero algo más de ti, tú no vales nada ni sirves para nada. Antes arrancábamos las puertas de las casas bombardeadas y abandonadas, las montábamos en las entradas de nuestros refugios subterráneos o dormíamos sobre ellas, tampoco tú vales ya más que eso: una puerta o una ventana, una mano o un pie, unas piezas de recambio. De qué le sirven a un hombre como tú las manos o los pies. ¿Acaso te queda coraje suficiente para mover una mano y espantar una mosca de la cara?

Hinchó la boca con el aire de la botella, se puso para él la cara de la luna y le sorprendió con una risa:

- ¡Sal, Nawfal, y entrégate, la ciudad está rodeada!

brillado y lo arrojó ante la gente. Luego se enderezó sobre el asiento y dictó sentencia. No tenía compasión del asesino ni de la adúltera.

¿Sabes porqué la gente le llamó Ya'qut? Porque se colocó entre los párpados un rubí rojo del tamaño de la pupila, para que la gente no dijera: "Nuestro juez es tuerto". De tan justo que era, el rubí brillaba entre sus párpados y podía ver con él, por eso la gente le llamó Ya'qut.

¿Quién puede describir lo que ocurrió aquel día? El Juez salió al balcón con sus libros y cálamos, se sentó en la silla y se abrió la sesión. En el patio había un ladrón que había sido detenido por los guardias, maniatado y arrojado ante el Juez. Cuando el ladrón vio al Juez, comenzó a llorar y a pedir clemencia: "Juzga con justicia". El Juez se quedó perplejo al escuchar sus palabras y solicitó que testificara toda la ciudad. Toda la gente se congregó entre apretujones en esta plaza. Todos, no hubo en la ciudad niño que pudiese hablar dos palabras a quien no se le pidiera testificar. Toda la ciudad.

La sesión duró todo un verano, el sol permaneció en su sitio, sobre las cabezas de la gente y los guardias rodeaban el patio. El Juez escuchaba, pero con cada palabra sus dudas aumentaban. Un verano entero escuchando y examinando sus papales y libros mientras la gente esperaba.

De repente, así, de repente, el rubí brilló entre los párpados. El Juez vio y dictó sentencia: ese día puso en libertad al ladrón y encarceló a toda la ciudad.

La oca ha plegado de nuevo las alas y ha dejado la cabeza sobre el alféizar de la ventana junto al cántaro. Nawfal se siente tranquilo tras la reja. La frente entregada a las ráfagas de brisa fresca del final de la noche. Sólo los ojos oscilan en la oscuridad y en las sombras.

No sabe si piensa o sueña: "Puede que Fanus se retrase más todavía, pero tiene que venir, me lo dice el corazón". El propio Fanus pensaba de esta manera. Le dijo: "Si tu corazón te habla, obedécele". Y dijo: "¿Quién puede distinguir entre las habladurías de esta mujer y su sinceridad? El mundo está hecho de secretos. Y cómo sabes, Nawfal, lo que puede suceder mientras estás sentado en tu sitio. Una noche estarás así, tras la ventana, sin pensar ni esperar nada y de repente se abrirán estos balcones y el rubí brillará en la oscuridad".

Se le pusieron los pelos de punta.

Fanus conoce todos los secretos de las viejas historias, es más, sólo él en la ciudad conoce la historia del Juez. Dijo: Mi primer antepasado la vivió. El Juez se sentó en el estrado, sin pasiones, como un niño. Una vez brilló uno de sus ojos ante una bella adúltera y se lo arrancó. Él estaba en el balcón escuchando, ella en el patio y la gente esperando su sentencia. Cuando brilló el ojo, guardó silencio durante tanto tiempo que la gente creyó que se había quedado mudo. Después, se removió en su sitio, alzó la mano, se arrancó el ojo que había

son como los viejos camiones militares rusos que se bambolean hacia ambos lados y se hunden en los arenales. ¿Y tú a qué te pareces, Abbas? Pensó y lo halló: “metralla, sí, metralla que hace sangrar y asesina, pero que cuando cae a tierra se convierte en un juguete en manos de los niños”.

Miró hacia la derecha y le preguntó al fantasma de Nawfal: “Y tú, viejo nefasto, ¿sabes lo que pareces? Quizás un camión destrozado por las bombas, con los faros oscurecidos y las ruedas extenuadas y pinchadas en la arena, y hierro fundido, algo innecesario, sólo piezas de recambio”.

Con una voltereta pesada y ebria, la metralla salió volando y cayó cerca del espectro del vehículo bombardeado. Le pudo la embriaguez y no consiguió completar la voltereta. Se tumbó de espaldas y golpeó la tierra con la mano de un solo dedo.

- ¡Sal, Nawfal! ¿Hasta cuándo huirás de mí? Para ti me pondré la cara de la luna; bajaré a las entrañas de la tierra y te perseguiré por las calles de la ciudad; te sorprenderé en cada callejón, caeré sobre ti desde las ventanas y te cortaré la punta de esa lengua que se niega a hablarme.

Con los pantalones húmedos y el cuerpo derrotado por los perros, Abbas se colocó sobre su carro en la acera junto a la entrada de la hendidura. El mismo sitio en el que por el día extiende su mercancía. Solo; incluso los perros le habían arrebatado a la mujer. Los perros que ahora se azuzan unos contra otros al final de la calle bajo la farola y se vuelven hacia él con astucia y se alegran de su mal. Los conoce uno a uno, desde la época del desierto los conoce, ninguno escapará a su venganza, algún día se vengará.

Ahora se bebe su última botella, contempla los balcones abiertos a la noche de verano; brilla un cigarrillo y hay un hombre en vela en una ventana lejana, como una estaca de madera alzada sobre el montículo de una diana. Le dio la espalda a la escena e insultó al noctámbulo: “¡Un perro como ellos!”.

Observó la luz de neón sobre el cartel de la tienda de la señora Wika; *Supermercado La Nueva Era*. Una mujer capaz a la que el mundo no había vencido. Come lo que el cuerpo le pide; se mueve sobre la tierra con firmeza como un carro blindado. La gente semeja estas cosas totalmente. Algunos recuerdan una ametralladora cuya existencia ignoras hasta que te sorprenden los disparos entre las sacas de arena; otros, aviones de combate; hay quien semeja un bazuka, de movimiento pesado pero cuyos cañonazos fulminan como el rayo. Muchos

Rugió la garganta de la Loca y la baba corrió por la comisura de la boca. Nawfal guardó silencio hasta que ella se tranquilizó, después señaló hacia el Palacio del Juez de balcones elevados:

- Le quería. Me dijo que el rubí brilló en su ojo, el Doctor me lo dijo.

Dudó antes de preguntarle:

- ¿Tú eres su madre?

Ella le gritó en la cara:

- ¡Vete, espía! No te acerques a la alfombrilla.

El temblor de la mano se hizo más intenso. Se levantó y cogió la bandeja vacía. Se demoró ante el antiguo balcón. No fue capaz de alzar la cabeza, la inclinó hacia el suelo y le pidió ayuda en secreto: “juzga correctamente y no me trates injustamente”.

- Vete.
- Comida; arroz y pescado.
- Le duele el corazón y mi estómago es frugal.
- Es para ti, cómetelo.

Ella se sentó y se arrastró hasta pegar la espalda a la pared:

- ¡Vete! No ensucies la alfombrilla con tus pies y no me des dolor de cabeza con tu palabrería. Se lo diré cuando salga.

Nawfal se sentó, tendió la mano, estiró la espalda y colocó el plato cerca de ella, en el suelo:

- Come. Lo guardada para Fanus pero se ha retrasado. Quizás se ha ido de viaje, como mi hijo.

La Loca olisqueó la comida y enrolló el chal sobre la cabeza. Sus ojos estaban perdidos. Él movió la mano pero sin saber qué señalaba:

- Nos dejó y desapareció.
- Te he dicho que te vayas y no me des dolor de cabeza.
- El Doctor, Fanus.

Él se arrastró dos pasos hacia atrás mientras ella tendía la mano. Cogió el plato y vertió el pescado y el arroz en el extremo de su ropa, después le arrojó el plato vacío a la cara.

- A veces se retrasaba pero siempre venía.
- Ella empezó a comer.
- Llegaba al final de la noche, hambriento, comía lo que encontraba y bebía del cántaro.

brillando sobre el suelo, alargó el brazo por entre la reja pero estaba lejos; se apretujó contra los barrotes y lo intentó, después oyó un golpe en la pared, abrió los ojos y dijo: “Ojalá sea Fanus”. La Loca arrojaba guijarros por el camino.

Tras la reja había una explanada y balcones elevados sumergidos en la oscuridad. La voz de la Loca se arrastraba desde debajo del arco ahuyentando la oscuridad: “Alejaos”. Bajó la voz, se cansó y se pegó a la pared del arco.

Nawfal se levantó. Tenía el cuerpo entumecido y le temblaba la mano. Ocultó el temblor en el bolsillo y cogió el plato con la otra mano. Pensó: “La Loca está hambrienta y Fanus se ha retrasado. Si dejo la comida para mañana se echará a perder”. Tropezó en el pasillo circular y salió al patio. Caminaba con cuidado hacia el arco: “Si allí hubiera arcos antiguos como este, el chico se habría tumbado bajo uno de ellos y se habría salvado del bombardeo de los aviones y del fuego de artillería. Un arco como ese no lo derrumba ni un terremoto. Aguzó el oído hacia el horizonte e intentó escuchar los sonidos que llegaban de más allá de la ciudad: ¿eran cánticos, o disparos de balas?

Al volver el rostro para escuchar, vio la luna, la mano tembló más y maldijo al Tullido. Después, sus pasos temblaron cuando la voz de la Loca le interrumpió y le detuvo:

- ¡Quédate en tu sitio, perro! El guardia está en la puerta.

Él tendió la mano con el plato:

- Comida.

El chico venía a veces, a menudo al final de la noche. Llamaba a la puerta y entraba. Comía lo que encontrara y bebía del cántaro. Pasaba la noche con sus amigos en el café, se le hacía tarde y venía para dormir. Nawfal le abría la puerta, le daba la espalda y se volvía a dormir. La verdad...la verdad, no pudo dormirse de nuevo ni una sola vez. Se volvía de espaldas, cerraba los ojos y se extraviaba en la oscuridad de sus pensamientos tras los párpados cerrados. Nunca se atrevió a hablarle claramente, ni encontró respuesta a su pregunta. A veces se levantaba para arroparle. ¿Le quería el chico más que a la madre? ¿Quién podía saberlo? Se había hecho un hombre y los corazones de los hombres son secretos. Incluso nada supo de su viaje hasta después de un tiempo. Hacía un mes que no le veía y fue a preguntarle a Yariyya, y ésta le respondió: "Se fue de viaje". Se lo soltó en la cara frunciendo las cejas como si hubiera preferido no revelárselo. Él le dio la espalda y se alejó.

Se fue como los demás, incluso ahora viajan a pesar de la guerra. Muchos aviones cruzan por encima de la ciudad día y noche. Se preguntó: "¿volverá?". Se marchó a Kuwait y cuando estalló la guerra uno de sus compañeros le vio en Iraq: "Le llamé pero no me oyó. Estábamos entre la muchedumbre y todo era confuso en medio de miles de personas. Algunos se dirigían a toda prisa hacia Jordania". Se lo contó a Yariyya y la maldijo en secreto; ¿cuándo había dicho la verdad ella?

Se amodorró esperando, y en la somnolencia escuchó pasos y el roce de un vestido y vio el rubí

completar la melodía, y el corazón de Nawfal permaneció pendiente, a la espera. Sobre sus párpados, se acumula el polvo de largos años en los que Fanus estuvo ausente y nada se supo de él. Se dijo a sí mismo: “Su voz debe retumbar ahora en algún lugar; tal vez allí sobre la negra Roca de los Secretos, con el viento sacudiendo el extremo de su chal blanco, apoyando el rabel sobre la cabeza con una mano y moviendo el arco con la otra; tocando y retumbando su voz y repitiendo las historias desde el principio, un hombre como él nunca muere”.

Nawfal pensó: “Si abriera bien los oídos le escucharía; hay un temblor de arco tras la noche y las casas; el oído casi puede atrapar el sonido pero ha envejecido. Qué lastima. Seguro que hay un hombre en la ciudad que puede escuchar con mayor claridad, pero ¿acaso presta atención?”.

La ciudad estaba dormida.

Hace tiempo, Fanus le dijo:

- La soledad atormentará tu corazón y destrozará tus párpados, tus ojos seguirán clavados toda la noche hasta que te dolera mirar.

Entonces le respondió:

- La vi con estos ojos, Fanus, ¿cómo puedo perdonarla?

Fanus comprendió y sacudió la cabeza. Con el rostro señaló hacia el Palacio del Juez y dijo: “No tenía compasión del asesino ni de la adúltera”

En aquel momento había olvidado hablarle a Fanus del chico. Si viniera esa noche le diría: “No estaba completamente solo, Fanus”.

susurro de telas y ojos amenazantes. No sé, Nawfal, si caminan o están parados. Pero les veo sobre la alfombra oscura. Está entre ellos dos, delgado, cabizbajo, el turbante le pesa sobre la cabeza y la negrura de la capa pesa sobre sus hombros. Sus párpados están casi cerrados y bajo los del ojo izquierdo oscila un destello pesado y brillante; el rubí. Cada hermano le coge de una mano, son altos y delgados, con las cabezas inclinadas hacia atrás, y sus ojos negros, grandes e inmóviles, escrutan la penumbra.

Nawfal se queda extasiado con las palabras. Olvidó preguntarle por la Loca. Si viniera hoy le preguntaría: “¿Es su madre, Fanus?”.

El mentón de Nawfal oscila en la repisa de la ventana y a través de la reja lanza sus miradas hacia el balcón. Piensa: “Ay, Nawfal, si lo vieras, así de repente: se abren las puertas y sale al balcón entre sus hermanos con el rubí brillando en la oscuridad”. Sintió escalofríos.

Alzó la cabeza y vio la luna en el horizonte, como si le estuviera mirando. Un rostro y una sonrisa irónica. Maldijo al Tullido y se asombró de sus numerosas argucias. Respiró y se preguntó: “¿Por qué se retrasa Fanus? ¿Se habrá ido de viaje?”.

Al arrastrarse el arco por la cuerda del rabel hay un temblor que hace que el corazón se dilate. Durante un tiempo el arco pasó por la cuerda sin

Después frotaba la tierra y daba una palmada en el suelo:

- La alfombrilla está limpia. Siéntese, Doctor.

Después, ella le preguntaba, señalando el gran balcón:

- ¿Le ha visto?

Él no le respondía ni se sentaba. La miraba, se mesaba el bigote, le arrojaba unas piastras en el regazo y se daba la vuelta. Tenía palabras en la boca pero no le salían.

- Sepa, Doctor, que su enfermedad es grave y que sus hermanos son duros de corazón.

Fanus es alto, con el turbante inclinado y la cabeza oscilando a ambos lados. El extremo de su chal blanco se balanceaba sobre la chilaba marrón. Se encaminaba hacia el alto balcón seguido de la Loca, que decía:

- Les parió un mismo vientre pero son duros con él.

Fanus se arremanga y apoya el codo en el muro de piedra ante el Palacio. Su cabeza oscila y sus ojos están clavados en el balcón. La Loca seguía parloteando, esta vez dirigiéndose a los que pasaban:

- ¡Rogad por él! El médico está en casa.

Los pies de Fanus vacilan sobre la tierra. En la cabeza tiene palabras y en la boca un canturreo. Fanus le dice a Nawfal:

- A veces, es como si lo viera tras el polvo de las ventanas cerradas. Turbantes inclinados en las sombras, arañas,

- No te asombres, piensa.

Intentó comprenderle pero no hubo manera y discutió con él:

- ¡Asombroso!

Fanus se rió de nuevo, se reclinó y se torció el gorro.

- En nuestro oficio hay secretos que heredamos de nuestro antepasado Abdelmawla y que sólo nosotros conocemos. Nuestro mayor secreto es: "Lo importante no es quién cuenta, sino quién escucha". Si entendieras sabrías que nosotros estamos en lo cierto, y sabrías que quienes escribieron los libros mintieron.

Nawfal se quedó perplejo, le dio vueltas a la frase en su cabeza pero hasta hoy en día no la ha comprendido. Si viniera Fanus le pediría que le la explicase.

Es extraño el rostro de Fanus. Cuando cuenta se inclina hacia atrás y sumerge las pupilas bajo el borde de los párpados tras las largas pestañas como un niño que se hunde tranquilamente entre las ramas de una sesban. ¿Le atormentaban las palabras? Quería a la Loca que vivía bajo el arco y decía de ella: "Pobre, su corazón está enfermo". Ella también le quería y no le tenía miedo como a los demás. Cuando ella le veía, le sonreía desde su sitio y señalaba con la mano para alejar a los que se cruzaban en su camino:

- ¡Alejaos, ha llegado el médico!

hasta el desierto y, allí, él se extravió en la belleza que no había contemplado ojo alguno. Cedió a su instinto y se despojó de los harapos de los derviches, pero cuando la deseó, la tierra se abrió y se la tragó. Entonces él se despertó y supo que había caído en la herejía. Cubrió su desnudez con la mano y miró al cielo. El sol resplandeció en mitad de la noche y se abrieron las ventanas de los cielos. Vio los ojos que se aparecían ante él por todas partes y oyó la risa del diablo resonando en el reino de los cielos. Los rostros de los ángeles estaban tristes y taciturnos.

Se arrepintió, pero ya era demasiado tarde. Agachó la cabeza, estalló la burbuja del miedo en su corazón y temblaron sus miembros. El sol siguió allí, en lo alto, durante todo un verano y un invierno, mientras él seguía temblando en medio del desierto. Siguió temblando y temblando hasta que por su causa la tierra se agitó y el cielo se estremeció. Después, a fuerza de tanto temblar, sus miembros se separaron y se esparcieron por el desierto y fue perdonado. La tierra abrió sus puertas a los miembros esparcidos, después el viento las selló y se perdió cualquier rastro. ¡Eso es lo que tú contaste, Fanus!

- ¡Ah! ¿Quieres decir eso? Eso también ocurrió, Nawfal.

- Qué extraño, Fanus.

Se rió.

Abdelgaffar y Abdelsattar, ahora nos llamamos Wanis, Sarhan, Ya'qub o Fanus. Cambiamos nuestros nombres, pero siempre nos reconocemos. Los Banu Abd se conocen entre sí y nunca mezclan su sangre. Por eso siguen teniendo una dulce lengua y conservan las auténticas historias. Los demás mienten, incluso los que las han escrito en libros mienten.

Apuntó el dedo hacia su cabeza, como si fuera una pistola, y disparó:

- La sabiduría está en la cabeza.
- ¡Pero tú mismo mientes a veces!
- ¿Yo? Los Banu Abd no mienten.
- A veces cuentas la historia de una manera y luego te escucho contársela a otro de forma distinta.
- ¡Qué extraño!
- Por ejemplo, una vez te escuché contar la historia del príncipe Fargali el tembloroso de forma diferente. Dijiste que no era príncipe, sino derviche, príncipe de los derviches. Un día el derviche salió de su celda, se alejó de la ciudad, la de las nueve puertas benditas y anduvo tras el vestido transparente y la hermosa voz que le llamaba. No sabía que los ángeles urden una prueba para cada santón. Se olvidó de sí mismo y anduvo tras la más hermosa de las mujeres; la Esclava del rey. Así, al menos, le pareció a él, y anduvo hasta caer en lo prohibido. La mujer le atrajo

Nawfal está sentado en el mismo sitio desde que volvió, sin dormir ni comer ni salir de su habitación. La comida seguía todavía en el plato y la vasija de agua en la ventana, goteando sobre una vieja bandeja de cobre repujado en los extremos. Se sentó observando el balcón, la mujer y a los que pasaban y acechando el regreso de Fanus, el rapsoda. Hacía meses que Fanus no le visitaba, muchos meses, quizás un año. Años.

Esa noche, Nawfal le espera, no cree que le está esperando, pero le espera. Dejó la comida en la bandeja y dijo: "Cenaremos juntos, le dejaré que coma hasta saciarse, después se recostará y contará historias. Le dejaré que las cuenta todas".

Muchas historias. Fanus ríe y le dice a Nawfal:

- Mis antepasados las transmitieron. Mi primer antepasado fue el primero que sopló el *nay*⁸ y le puso cuerda al arco.

Y contó: Sólo los descendientes de Abdelmawla saben de memoria estas historias, los demás mienten. Eran los dueños del mundo y a manos de ellos y ante sus ojos ocurrió todo. Hubo un tiempo en que distraían a la gente con sus historias y turbaban sus ideas, entonces el sultán les prohibió contar historias y les dispersó por el país. El sultán murió y ellos permanecieron, pero después de transformar su aspecto y cambiar sus nombres. Antiguamente nuestros nombres eran Abdelmawla,

⁸ El Nay, una flauta alargada, y el mizmar constituyen los instrumentos de viento por excelencia. (N. del T.)

Nawfal apoyó el mentón en el alféizar de la ventana enrejada y contempló el amplio balcón del Palacio del Juez y, a la izquierda, el arco de piedra contiguo. Hacía mucho tiempo que no se celebraba el Consejo de Justicia desde aquel balcón, mucho tiempo que la gente no pasaba bajo el arco de piedra hacia la explanada vitoreando al Juez Ya'qut⁷.

Un antiguo monumento; una casa de una sola altura. Detrás, hay majestuosas casas, cúpulas y alminares, y por encima el horizonte y cielos alargados. En la acera, bajo el arco de piedra, vivía la mendiga loca. Dormía por el día y velaba por la noche para mendigar a su manera, insultando a los que pasaban y maldiciéndoles:

- ¡Arroja tu limosna de lejos y márchate! No toques mi mano y no ensucies la alfombrilla. ¡De lejos, guarro! ¡Arrójala y vete!

A veces, paseaba delante del balcón dirigiéndose a alguien escondido tras el polvo de las altas y antiguas puertas:

- No temáis, se ha ido. Sal, espíritu de tu madre y apóyate en los hombros de tus hermanos. Sal. La brisa del Nilo en el balcón reanima el espíritu del débil. Sal, Ya'qut.

⁷ Ya'qut es tanto nombre propio como "rubí". (N. del T.)

camino saludándole. Le dio el brazo a la mujer y bajó de la acera. Las ruedas tocaron su melodía sobre el asfalto y se repitió en sus oídos una barahúnda de canto y tambores. Era un extraño cortejo nupcial seguido por los perros de la calle, atraídos por el olor del arroz y las lentejas mezclado con los jugos gástricos, que se apretujaron para olisquear el trasero del novio.

No se dio cuenta hasta que un perro le mordió por detrás y entonces le atacó con la artillería pesada, y cuando se acercó otro le bombardeó también. La persecución continuó hasta casi la madrugada.

delante y luego hacia atrás. Dio vueltas completas a derecha e izquierda, y después se colocó en la acera, en la esquina donde se juntan las calles. Se quedó en una postura solemne. Bebió y no le gustó la vista. Le dijo a la luna: "Si estuviera en tu lugar, amasaría todo esto y lo haría de nuevo". Le gustó la idea, se rió y lo intentó.

Con su anterior experiencia como panadero amasó la ciudad, después amontonó la masa ante sus ojos y le volvió a dar forma; allanó los lechos de los ríos, dio salida a las fuentes, soltó a los corderos en los pastos y alineó las colinas alrededor de la ciudad. Después alzó su único dedo e hizo rodar la roca negra; la Roca de los Secretos que flota en el horizonte y la hizo rodar hasta la elevada cumbre.

La gente, entre los lechos de los ríos y los desfiladeros, esperaba. Ahora no hay movimiento. Se volvió hacia la mujer y también le volvió a dar forma. Le destrozó el cuello y lo arrojó y puso en su lugar la cara de Wika. Después colocó a la mujer a su derecha y la vistió con un traje de boda. Ahora se preocupa de él mismo, el novio. Se puso el cuerpo de Nawfal pero conservando su rostro para no confundir ni a la mujer ni a sí mismo. Sólo le dio a la cara la redondez de la luna y se colgó en la manga dos galones.

Cuando acabó el trabajo, estaba contento y descansó. Se bebió una botella de un trago. Ahora el músico sopla el *mizmar*⁶ y soplan las brisas de verano y la gente se mueve a ambos lados del

⁶ Mizmar: tradicional instrumento de viento similar a la dulzaina. (N. del T.)

- ¿Cómo me puedo fiar de un hombre a quien no puedo verle los dientes? Tal vez tenga colmillos de perro. No le dejaré tranquilo.

Pensó en el otro asunto y tuvo intención de preguntarle, pero se mordió la lengua y se dijo a sí mismo: "Si se da cuenta de que estoy ansioso me tomará el pelo. Mejor por la mañana".

Recuerda: mujeres y trenes. Silbatos, campanas y pañuelos, viajes día y noche; rostros en las estaciones; mejillas, labios y ojos. Chicas que venden refrescos. El bebe y con el codo toca los pechos frescos. Adiós, soldado, adiós.

Recuerda: el tren en el jardín de naranjos. Tuuu, tuuuu. Huyó del gentío, del calor y del interventor hacia la cubierta del tren diesel. La chica estaba sola, le lanzó una naranja. ¡Te quiero, soldado!

Falló al lanzar la naranja y los brazos de el permanecieron extendidos. Ella cogió de su regazo otra y se la lanzó. Falló la tercera y la cuarta. El aire golpeaba sus costillas, la mano extendida y la naranja que se partía y rodaba por tierra. La chica corre con el tren: tuuu-tuuuu. Adiós, soldado.

Adiós.

Ahora la calle está vacía. Hay polvo en el horizonte, calor, la luna y unos perros que se distraen. Lleva las botellas de zumo y alcohol. Las amontona en el cubo que carga en la Marrana. Bebe y bracea encima del carro y las ruedas resuenan sobre el asfalto como si estuvieran blindadas. Hizo una hábil maniobra con el carro, corriendo hacia

Braceó con fuerza y las ruedas de la Marrana resonaron sobre el asfalto del camino. Se llenó la panza con arroz, lentejas y salsa picante. Después pasó por el café y alegró su humor con un vaso de té y pensó: “Por la mañana le preguntaré a la señora Wika. No hay motivo para avergonzarse. Si me estuviera engañando se le notaría en la cara”.

Jugó a las cartas con desconocidos, perdió la apuesta en la primera partida y se retiró del juego. Se dijo para sus adentros: “Tengo tan poco dinero que no me puedo permitir el lujo de perder y estos son tipos duros, no me devolverán mi dinero”. Hace tiempo, el juego le llevó a la ruina, perdió el dinero de la indemnización, una libra tras otra hasta vaciar los bolsillos en la mesa, pero una idea seguía rondando por su cabeza: “Algún día ganaré, un solo golpe de suerte y se arreglará el mundo, es la única manera de compensar todo”. Se dijo: “Me compraré un carro metálico con dos grandes ruedas”.

Ahora ha llegado el momento. Regresó a su madriguera y tomó zumo de caña con alcohol metílico. Wika se disponía a cerrar la tienda. La saludó y le cogió un cigarrillo. Señalando el sitio de Nawfal, le preguntó:

- ¿Dónde ha ido?
- Se ha metido bajo tierra huyendo de ti.
- No escapará.
- Déjale en paz. ¿Por qué le acosas?

- Lleva a tío Nawfal de la mano hasta el final del callejón, el camino tiene muchos socavones.

Su mano tembló durante todo el camino. El temblor aumentó hasta que se agitó la articulación del hombro. Pensó en la mujer: “Yariyya se ha hecho mayor y ha envejecido. Es veinte años más joven que yo, pero ya parece una vieja”.

A ambos lados había cafés, tiendas y gente. Se enroscó en su piel y se arrastró con dificultad en medio del bullicio, se enroscó hasta casi desaparecer. Sus ojos parpadeaban persiguiendo la imagen de Yariyya: “Sólo me dio un hijo y al otro le ha dado cuatro”. Caminó más despacio al pasar por el Palacio del Juez, y sonrió como la oca al recordar lo que dijo Fanus: “No tenía compasión del asesino ni de la adúltera”.

La Loca le lanzó unos guijarros y deliró:

- Cierra la boca y aléjate. Le duele la cabeza y tiene el corazón débil. No quiere que le cuenten nada más. Vete y cuidado con ensuciar el borde de la alfombrilla.

En la puerta de su casa se giró por última vez para asegurarse de que el Tullido no le seguía. Al ver la luna llena tuvo miedo y se asombró de sus numerosas astucias. Le asaltó el pánico en la oscuridad de la entrada, tropezó en el pasillo circular hasta que el corazón se tranquilizó ante la puerta de su habitación. Entró y encendió la lámpara.

- Los chicos no han vuelto todavía. Se han hecho mayores y han aprendido a traspasar.

El se apoyó, se puso de pie y se echó la bolsa al hombro.

- Si sé algo te lo diré, eres su padre.

El bajó un escalón.

- No se hará ninguna gestión sin que tú lo sepas. Debes firmar los papeles.

Corrió el impulso eléctrico. Dos peldaños.

- Es importante que los firmes.

Tres. Ella se levantó y volvió la cara perpleja:

- Es importante. Eres su padre.

Cuatro. La oca redondeó el trasero. Suspiró hondo:

- ¡Ojalá vuelva!

Cinco escalones.

- ¡Espera!

Siguió bajando, pero ella le alcanzó en la puerta.

- Toma. Algo para cenar.

Ella dijo:

- Ya sé. Tu corazón está enfermo. Mañana pasaré a verte y te contaré el resultado.

Y le preguntó:

- ¿Dónde te pones ahora?

- Allí.

- ¿Dónde está Wika?

- Sí, donde Wika.

- Pasaré a verte mañana.

Y le dijo al muchacho:

La mujer estaba en medio del salón, peinándose sus cabellos húmedos, los extendió sobre el pecho y estiró las puntas con las manos para evitar que se enredaran los dientes del peine. Cuando el chico abrió la puerta, ella apartó las piernas de su mirada y se ciñó la túnica. “¿Habrá visto algo?”, se preguntó.

- El tío Nawfal...

- Ya te he oído, sal y cierra la puerta.

Se cubrió la cabeza con un pañuelo, se puso un traje negro y se sentó en el siguiente escalón:

- ¿Por qué no subes?

Meneó la cabeza con sacudidas sin sentido alguno, no quería decir nada, sólo pensaba: “¿Se lo pregunto?”.

- No te preocupes Nawfal, es tu hijo. Si sé algo de él debo contártelo. Créeme.

El siguió moviendo la cabeza hasta el punto que ella pensó que era el temblor.

- Créeme.

El pensaba: “¿cuándo ha sido sincera?”.

- Mi marido ha ido hoy a la embajada con un pariente que tiene conocidos y amigos allí. Se está retrasando, ¿no es cierto? A lo mejor ha sabido algo.

El permaneció en silencio y entonces ella dijo:

- Mi marido está tan preocupado como si se tratara de uno de sus hijos.

El temblor.

Ella se acordó y cambió de tema:

de vuestras casas la herradura de su caballo, así las manos de los tiranos no llamarán a las puertas, y colgad las espigas de trigo, pues así los ricos no se darán cuenta de vuestra hambruna y no comprarán a vuestras mujeres a bajo precio, por una hogaza de pan. Traed polvo de flor seca y de hojas de sauce y depositadlo en vuestros balcones como ofrenda al viento que lo esparcirá, en lugar de diseminarnos a vosotros por lo mercados vendiéndoos y ofreciendo el sudor de vuestra frente por los caminos!”.

- Continúa, Fanus.

Se ríe y pliega su chal blanco:

- ¿Cómo Nawfal? ¿Quién puede seguir cuando el viento no ha terminado todavía su canto? Piensa.

Se extraviaron sus pensamientos mientras hacía rodar los cantos. Sus pasos le conducían hacia casa, pero se acordó de algo y cambió de dirección hacia la casa de su ex-mujer, la madre del desaparecido. Subió la mitad de los escalones con dificultad y después se sentó en el escalón grande y la llamó con voz débil:

- ¡Yariyya!⁵

Nadie le oyó, pero le vio un muchacho que bajaba las escaleras dando saltos y le golpeó con el pie sin darse cuenta. El muchacho volvió, subió la escalera, empujó la puerta entornada y le dijo a la mujer:

- El tío Nawfal está en la escalera.

⁵ Yariyya, que aquí se utiliza como nombre propio, significa también “esclava” (N. del T.).

Por el camino hizo rodar de nuevo los cantos con el pie contemplando las espigas de trigo colgadas a la entrada de las casas. Pensó en las últimas palabras de Fargali: “¡Ay, Fanus! Si vinieras esta noche, te pediría que me lo contaras otra vez. Tienes una manera de contar única, al escucharte se ilumina el rubí de mi corazón”.

Tiempo atrás le había dicho Fanus: “Sólo mi abuelo conocía su testamento, grabado en las entrañas de la Roca de los Secretos. Nadie sabe cuando lo compilaron, ni cómo lo grabaron en las entrañas de la roca. En los malos tiempos, lo cantaba por las orillas de los canales y en los puentes. Sólo cantaba por la noche, se alzaba en los escondites del viento con el rabel sobre la cabeza; el viento soplaba, el rabel sonaba y el país entero, de punta a punta, le escuchaba. Tenía una voz potente y el viento le ayudaba, la gente escuchaba y se preguntaban extrañados de dónde podía proceder esa voz”.

- ¿Todo el país?
- Todo, Nawfal. Si te callaras lo oirías.
- ¿Ahora, Fanus?
- Ahora, Nawfal.
- ¡Pero tu abuelo murió!
- Si, mas el viento no ha muerto, primo. Piénsalo.

Nawfal piensa; ¡ah, qué palabras tan hermosas”. “¡Pueblo de Egipto, colgad a la entrada

El muchacho aminoró la marcha entre el temor y la sorpresa.

- No temas, ponte tieso y sonríe.

Se estiró.

- ¡Sonríe!

Sacó el peine del bolsillo.

- Ahora eres mi espejo. No temas, un minuto y podrás marcharte.

entre un montón de cadáveres rígidos. Cuando se despertó no estaba seguro de nada, estaba extrañado. Miró a través del cristal de la ventanilla y la vio; arenas extensas y ella sola, una vieja cubierta de polvo que tendía sus ramas hacia él mientras el vehículo circulaba por el camino con su rígido cargamento. Sus ojos se quedaron pegados a ella y la llamó.

- ¡Mamá!

Quizás ese grito fue su salvación.

En los lavabos de detrás del sepulcro del príncipe Fargali se lavó y se puso ropa limpia. Una vez hubo acabado se dio cuenta de que ya había terminado la última oración y que la puerta del santuario estaba cerrada. Alzó la mano en un saludo militar mientras se arrastraba sobre las nalgas en posición de "vista a la izquierda". Y le dijo al que estaba allí encerrado: "Todo en orden, señor". Y se dijo a sí mismo: "Este debía ser sargento primero, por lo menos". Se acordó del tembloroso Nawfal, sintió desprecio por él y se dijo: "Mendigaba entre la gente con su mano temblorosa"; le odiaba. ¿Dónde están los hombres de antes? Su cuerpo estaba completo, no le faltaba ni un dedo, pero el temblor estaba en su alma. ¿Por qué sigue vivo? Pensó: "Si sirviera de algo, saltaría sobre su interior, expulsaría su alma y me extendería por sus miembros, necesito dos piernas y dos manos completas; voy a casarme".

De camino paró a un niño:

- ¡Espera!

Abbas comenzó sus ritos vespertinos con el juego del árbol. Se subió a la Marrana de madera y se arrastró hasta el final de la calle. Giró a derecha e izquierda hasta entrar en el callejón sin salida que hay detrás del almacén de madera. Saludó a los árboles: “¡La paz sea con vosotras, madres de los creyentes!”. Se detuvo bajo “El clítoris de la esclava”, un árbol de tronco inclinado y flores rojas, luego se bajó del carro. Se recostó en el tronco inclinado y lo estrechó entre sus poderosos antebrazos, se arrastró una corta distancia: “Ay...ay”, hasta que dejó reposar su cuerpo sobre el tronco. Se quitó los pantalones y en tal postura comenzó a aflojar el cuerpo, hasta que se abrieron las nalgas y vació el vientre.

Sólo lo podía hacer en esta postura. La metralla no dejó nada entre sus muslos sobre lo que apoyarse y que le ayudara a relajarse. Si talaran ese árbol de tronco inclinado sería un problema, ¿cómo lo haría colgando de un árbol de tronco vertical?!

Recordó cómo lo hacía en otros tiempos; escarbaba un hoyo en la tierra, después se tumbaba de espaldas, aflojaba el cuerpo y allí lo hacía.

Pero la postura del árbol inclinado fue un descubrimiento genial. Ya estaba satisfecho, lo hizo y bajó. Se despidió de los árboles y se marchó.

Se acordaba del árbol que era su madre. La vio por primera vez el día que regresaba del desierto. Estaba en la caja del vehículo, encerrado

rocas y se detuvo mirando a su alrededor y aguzando el oído. Estaba embrujada entre las sombras y le dijo: “Tras las colinas, fuera de la ciudad, hay música, canto y alegría, mi príncipe”.

Nawfal pensó: “en ese momento, él no lo sabía nada”.

Y ella dijo: “Deja partir a tu pueblo para que se divierta”. Él no la oyó; ella estaba embarazada y sólo pensaba en el niño.

Nawfal se pregunta: “¿quién será su padre?”

Después, vino la noche de la tristeza, Nawfal; se despertó en la engañosa madrugada y no la encontró en su escondite rocoso. Salió a buscarla y vio a sus enemigos a su alrededor, por todas partes, y entre ellos vio a sus soldados, a su pueblo y a la Esclava embarazada. Ella gritó al verle: “¡Libera al pueblo!”. Y sus enemigos gritaron: “¡Libera al pueblo!”. Vio la maldad en los rostros de todos, saltó sobre su caballo y gritó: ¡Ahh... Ahh!. Relampagueó su espada, tronó su gritó en los cielos, pero su mano temblaba, pasó la espada a la otra mano, pero también tembló. Salió el sol y le gritó: ¡Sé firme, corazón de Fargali! Pero su corazón ya se había roto. Asió la espada con los dientes, colgó sus temblorosos brazos sobre el filo y la espada los cortó, espoleó al caballo y galopó por el horizonte. El sol se avergonzó, volvió el rostro y se eclipsó tras una nube. Se separaron las montañas y las colinas, huyeron y se amontonaron tras la ciudad, allí están ahora, roca sobre roca y una colina elevada. Después, una larga noche se hizo sobre la tierra y se sucedieron los veranos y los inviernos.

Fanus dijo: “Ay, Nawfal, si hubieras vivido aquellos tiempos; cantaban a la vera de su negro y liso camino que sube a la Roca de los Secretos: ¡La espada de nuestro príncipe es un relámpago que descarga el miedo en los corazones de sus enemigos, y su larga lanza es como el Nilo de Egipto, en ella ensartó sus ciudades que luego arrojó en el desierto y cubrió con la sal del mar”.

Dice Fanus:

- Ningún caballero pudo con él, pero la Esclava le subyugó.
- ¿Quién es la Esclava, Fanus?
- La Esclava, toda mujer es esclava.

Y contó Fanus:

- El le abrió su corazón y le entregó la llave de sus secretos.
- ¿Qué secretos?
- Las nueve puertas de arena; las arenas movedizas cuyos talismanes sólo él conoce.

Nawfal se preguntó: “¿el la quería?”.

- En medio de las rocas, el guerrero se siente seguro, se despoja de la espada y del escudo y entrega su sudor a la Esclava.

Nawfal piensa: “¿quién podría adivinarlo?”.

- Una noche, ella salió, encendió los candiles en las entradas de la casa de las

sobre las que el príncipe Fargali fundó su ciudad y levantó baluartes en sus fortalezas. Fanus le dijo: “Las colinas son las murallas de la ciudad, ¿cómo podría con ellas el enemigo? Sus puertas son arenas movedizas, nueve puertas mágicas, cómo podría entrar por ellas aquel que desconociera su secreto?”.

Aquí, donde se encontraba la tumba, se alzaba la cumbre más alta sobre la que brillaba la roca negra, redonda y suave como piel de víbora. Fanus le dijo: “La piedra era un grito de auxilio que dio la tierra en tiempos del diluvio. El grito se solidificó y se perdió por el horizonte, hasta que se asentó sobre la elevada cumbre y le llaman la Roca de los Secretos”.

En los atardeceres, Fargali sube en su corcel negro hacia la roca para vigilar su ciudad con cabeza de príncipe y corazón de santón. Dijo Fanus: “Cada día es como si le vieran por primera vez. La mujer pregunta al esposo, y el hombre al hermano ¿quién es ese que se yergue sobre la alta cumbre mientras brillan en el crepúsculo las chispas del paso de su inquieto caballo sobre las lisas rocas? Todos los días hacen la misma pregunta, Nawfal, y todos los días responden lo mismo: “Es nuestro príncipe con un manto negro sobre un corcel negro encima de una roca negra, y el viento ondea el extremo de su pañuelo rojo. Negro sobre negro sobre negro, bajo él brilla un arco de chispas y por encima un arco de crepúsculo rojo que cuelga de las bóvedas del horizonte”.

Después de haberse asegurado, sosegó sus pasos. Hizo rodar con el pie las piedras del camino y soñó con el rubí. Anduvo por callejuelas angostas y cubiertas, por su camino diario hacia la tumba del jeque Fargali, príncipe de los temblorosos y protector de los trémulos. Pensó en la historia y se quedó admirado: “¿Por qué levantaron su tumba junto a la de la Esclava?”. Nunca había visitado el santuario de ella, apartaba el rostro de él como si no lo viera, pero la cuestión le dejaba perplejo: “Si Fanus viniera hoy se lo preguntaría. Tiene que encerrar un sentido profundo que sin duda Fanus conoce, si viene lo sabré”.

Se quitó las sandalias en la puerta de la tumba, y, ya dentro, pasó la temblorosa mano derecha por la reja de plata repujada. Introdujo la nariz entre dos barrotes y suplicó en su interior: “Una mirada, una sola mirada y haré lo que quieras”. Aumentó el temblor de su mano hasta que el antebrazo se estremeció y el codo golpeó las rejas. Apartó el rostro del que yacía en la jaula decorada y respiró de forma estertórea: “Hágase tu voluntad, Fargali”. Estaba disgustado.

Salió, apoyó la espalda en el muro del sepulcro y escrutó la escena: una sirena, noche y electricidad, mezcla de hombres, mujeres y casas. La tierra se ha abierto, se ha perdido el rastro; las colinas ya no están en su sitio, huyeron ante el horror de lo que sucedió. Ahora están allí, tras la ciudad, roca sobre roca y una colina elevada.

Aquí había montañas que fueron testigos de la gran catástrofe; manantiales, valles y colinas

El sol se retiró y apareció por debajo del cartel, las novias del crepúsculo se alargaron, después abandonaron el cartel y se sumergieron con el sol tras las casas, pero quedaron retazos rosáceos de sus manos esparcidos bajo el cartel que brillaba como si fuera un barco a la deriva en un mar sin luz.

La oca se recostó sobre su rostro triste, estiró el pico entre sus cejas y se durmió. Siguió mirando alrededor, como asombrado, su vista cansada estaba perpleja entre los restos suspendidos del crepúsculo y la calle, que se preparaba para la noche de la electricidad.

Reunió sus mercancías en una gran bolsa de lino y continuó observando la situación. Aprovechó que el Tullido había entrado en su madriguera y se puso en pie. Metió la mano temblorosa en el bolsillo para ocultarla a las miradas y cogió la bolsa de las mercancías con la mano izquierda. Siguió mirando a su alrededor hasta salir de la calle. Echó un último vistazo al dislocado cartel con la postrera luz del crepúsculo. Se giró más de una vez mientras deambulaba por los callejones para asegurarse de que el Tullido no le seguía.

En su cabeza había una vieja obsesión; un día, el Tullido le seguiría para saber donde vivía y esa noche no le dejaría dormir de la misma manera en que le arruinaba el día. Maldad y mala educación. Pensó: "El Tullido no descansará hasta que me muera, me vendió todo el mal que hay en su corazón, cada día me da a tomar una cucharada, la llena y me la mete en la boca a la fuerza. El Juez no tendrá compasión de él".

La oca desplegó las alas ante la cara de Nawfal, mientras el sol se ponía despacio tras el cartel de la entrada de la calle, el único con caligrafía suya que seguía colgado hasta ese momento. La sonrisa temblorosa y el cartel comenzaron a brillar y centellear con la luz del ocaso al fondo y con formas crepusculares como novias que revolotearan en el firmamento.

Ahora ya no podía leer las palabras a tal distancia pero las recordaba: "Por Egipto... la justicia, la libertad y la seguridad... votad el símbolo del barco"⁴. También recordaba que escribió el cartel para un joven flaco y nervioso que fumaba, que no paraba de mirar alrededor, de revolverse el pelo y de susurrar con sus amigos. Siempre tenía a su lado varios jóvenes de su misma edad y aspecto. Le escribió sólo dos carteles; éste y otro similar que colgó en el Palacio del Juez, pero sus rivales lo arrancaron por la noche. Perdió las elecciones con un resultado irrisorio. Después de aquello desapareció con sus compañeros, tal vez se fueron de viaje. Todos lo hicieron, muchos aviones surcaban la ciudad día y noche, zumbando y llevándose a la gente. Ni siquiera él le votó, toda su vida escribiendo carteles para todos sin votar nunca a nadie, ahora no sabía por qué.

⁴ Los partidos políticos recurren en las campañas electorales a identificarse con símbolos. (N. del T.).

de la basura que habían arrojado los vecinos desde buena mañana, después cogió el cubo, subió a la Marrana y salió. Compró un zumo de caña de azúcar y regresó. Vertió el alcohol en el zumo, luego llenó las botellas y las tapó. Las alineó y las contó: “1, 2, 3, 4, 5, 6, 7...”.

Echó un vistazo al sitio y se sintió a gusto, pero le asaltó una cuestión que le dejó perplejo: ¿cómo dormiría con la mujer en esta madriguera? Pensó y halló una solución: “dormiremos como lo hacen los soldados en las trincheras en los momentos de descanso; a lo largo y con los pies de cada uno en una dirección, yo hacia fuera y ella hacia dentro, con las cabezas pegadas. Colocaré mi cabeza sobre su pecho y ella la suya sobre el mío. En esta postura podré hablarle y besarla, y cuando mi apetito me lo pida daré una voltereta, me montaré sobre ella y problema resuelto”.

Se sintió tranquilo gracias a esta solución. Pensó, pero no encontró ningún otro problema que pudiera inquietarle y saltó desde el interior de la madriguera hasta la acera con una gran voltereta. Se golpeó el pecho y gritó:

- ¡Gracias a Dios!

burlado de él. Se rió, le hizo la mayor voltereta que podía dar y le dijo:

- ¡Por Dios que lo sabía!

El Tullido temió que se le pasaran por alto algunos arreglos importantes para la noche y cubrió su mercancía con un plástico sujeto con unas pinzas, después entró en su madriguera. En el muro había una manta de tela de saco, bolsas que contenían su ropa y fotografías colgadas. En la pared de la izquierda había presidentes, deportistas y publicidad de trajes de hombre vacíos; sólo trajes; en la de la derecha, actrices, modelos y amantes en posturas delicadas. En medio de estas estimulantes vistas había una vieja fotografía de Abbas junto a sus compañeros vestido de militar con dos galones en la manga. Al final de la hendidura había una caja cerrada con candado. Abbas había fijado el fondo al muro con largos clavos por el interior de la caja para que nadie la robara. En el rincón había una pieza de madera plana con cuatro ruedas que Abbas montaba y utilizaba como carro en sus desplazamientos largos. La llamaba "la Marrana" y le decía a la gente: "es el último modelo"³.

Por el suelo había muchas botellas y un cubo de plástico de tamaño mediano. Abbas confió en que hubiera suficiente alcohol metílico y limpió el lugar

³ Al- Janzira: así denominaban los egipcios uno de los primeros modelos de Mercedes comercializado en el país, debido a su gran resistencia y a su dura carrocería, como la piel de cerdo. Los modelos que le siguieron recibieron popularmente los nombres de Timsah (cocodrilo), un modelo más estilizado, Shabah (fantasma) y Budra (heroína) dado que, según el dicho popular, debido a su elevado precio sólo lo podían comprar los traficantes de droga. (N. del T.).

El Tullido vive en una hendidura alargada entre dos casas: cuatro metros de largo por uno de ancho. Cada casa dejó medio metro para abrir ventanas que dieran al vecino. Cuando Abbas la descubrió se puso contento y empleó todas sus artes en arreglarla para residir en ella. Fijó dos maderos entre los huecos de los adobes, uno a la entrada de la hendidura y otro al final. Del travesaño delantero colgó una pieza de tela de saco: la puerta. Sobre los dos travesaños una pieza de plástico inclinada hacia la entrada para que corra el agua de lluvia en invierno: el tejado. En verano, Abbas levantaba el tejado para no morir de calor, y desde la hendidura espiaba las manos, los cuellos y las risotadas de las mujeres, indiferentes, en las ventanas.

Cuando se instaló en la hendidura se le ocurrió una broma y colgó a la entrada un cartel que le escribió un joven escolar en una hoja de dibujo: *“Establecimiento Los Héroes de la Liberación”*.

La señora Wika le plantó una guindilla en el culo cuando le dijo:

- Los inspectores de hacienda han pasado por aquí mientras dormías, leyeron el cartel y anotaron la dirección y tu nombre. ¡Que el Señor te proteja!

Rompió el cartel en pedazos, pero la guindilla siguió picándole en el trasero durante meses hasta que comprendió que Wika se había

comenzó a regatear. Nawfal estaba inquieto. Sus ojos estaban puestos en el Tullido todo el tiempo y su preocupación era concluir la venta antes de que Abbas se diera cuenta y lo estropeará todo. Pero el Tullido no se percató, salvo después de que Nawfal hubiera cobrado el dinero: dos buenas libras que se metió en el bolsillo dibujando en su rostro la sonrisa de la oca. Abbas se rascó la cabeza y recorrió, arrastrándose sobre sus nalgas, la mitad de la distancia que había entre ambos con las manos en la cintura. Después gritó como una gallina:

- ¡Todo a un chelín! ¡Rosarios, mondadientes, ámbar! ¡Todo a un chelín!

El comprador retrocedió dos pasos, miró la mercancía de Abbas y se quedó perplejo al ver a la gente reírse. De repente, el Tullido dio una voltereta ante él y le gritó a la cara:

- ¡Todo gratis!

El hombre se asustó y se dio cuenta de que había truco. Se rió y siguió su camino mirando a su alrededor.

- Libreme Dios. Me dan mala espina los tuertos. Huiré de ella como huyó Fargali de su familia.
- Pero ella está ilusionada contigo. Le gusta que seas esmirriado.
- ¿Me conoce?
- Te vio con el ojo tuerto.

Se giró de perfil con los hombros y se acarició el pecho con los brazos.

- ¿Qué le parezco?
- Está trastornada. Tu hermosura la ha hechizado.

El guardó silencio.

- Piénsalo.

Pensó en la chica de las naranjas y le dijo a Wika:

- Necesito un cigarrillo.

Encendió el cigarrillo a su manera y pensó en las embarazosas situaciones que podían producirse entre él y la mujer. Sujetó el cigarrillo con los dientes y dio una voltereta delante de la tienda.

- ¡El Tullido es de hierro!

Abbas no descartó que la señora Wika pretendiera jugar con él, pero pensó en el tema seriamente y se reprochó no haber pedido ver a la mujer. “Esperaré, necesito tiempo para comprobar si es sincera antes de pedírselo, de lo contrario el asunto sería una farsa”.

El Tullido estaba abstraído en sus pensamientos cuando Nawfal vendió cinco rosarios y cinco mondadientes de golpe. Los compró un aldeano que primero los lió en su pañuelo y después

- ¿Y si le aprieto la barriguita grita: "papá... mamá"?
- Vete, desgraciado, no me hagas perder el tiempo.
- Ja...ja...
- No estoy bromeando.
- ¿Es guapa?
- Guapísima.
- ¿Viuda?
- Soltera.
- Hasta luego.
- Ven aquí, chico. Es soltera, pero de la edad de tu madre.
- Yo no tengo madre.
- ¿Cómo?
- Como lo oyes. Nací de un huevo de cuervo en la ventana de una mezquita.

Esperó hasta que ella hubo vendido un paquete de cigarrillos y le explicó:

- Es mayor. Servía en casa de un médico pero cuando se quedó sin fuerzas la echaron.
- Entiendo, se ha hecho mayor y quiere alguien que se ocupe de ella.
- No es eso lo que ella desea. Busca a alguien que le haga compañía..
- ¿Y por qué no se ha casado hasta ahora?
- Tiene un defecto.
- ¿Cuál?
- Sólo tiene un ojo.

Wika se rió y guardó silencio.

- ¿Qué ha dicho?
- Le pregunté por su hijo y me respondió.
¡Pobre hombre!
- Seguiré acosándole hasta que diga algo y hable solo.
- De hecho, habla consigo mismo.

Ella le ofreció un cigarrillo y quiso encendérselo pero él le arrebató las cerillas y lo prendió utilizando la destreza de la mano de un solo dedo. Sujetó la caja en la palma de la mano, dobló el fósforo hasta estar en contacto con la caja, después lo desplazó por encima con un movimiento rápido y resuelto y salió la llama.

- Abbas es capaz de hacer todo.
- Sólo tienes lengua.
- Me he liberado de muchas cosas que no necesito. Me las quité de encima y las tiré. Pero la lengua es la mitad del hombre.
- ¿Y la otra mitad?

Se rió y osciló sobre sus nalgas.

- Lengua también.
- ¡Guarro!

Se revolvió en su sitio pero ella le detuvo.

- Espera, Tullido.

Esperó hasta que la tienda se quedó vacía.

- Tengo una novia para ti.
- ¿Una muñeca de feria?²
- ¡Una novia, una mujer, estúpido!

² La palabra 'arusa se utiliza tanto para novia como para muñeca. (N. del T.).

Si le pagaran la indemnización lo primero que haría sería comprarse un rosario de ámbar. También se compraría un rubí. El rubí es un mar de secretos. Después podría esmerarse de nuevo en la caligrafía. Recordaba las miradas de aprobación que se agolpaban entorno suyo en las temporadas de elecciones; meneó la cabeza saludando a todos los ojos que le miraban, le recorrió la descarga eléctrica y dibujó en sus labios la sonrisa de la oca.

Con el calor llegó una nube de moscas que se posó en la cara y en las manos. Se levantó, se sujetó la cintura con la mano temblorosa y con la otra cogió una lata vacía que había llenado de la tienda de la señora Wika. Wika le pidió que esperara, le ofreció un cigarrillo y luego le preguntó por su hijo. La oca puso un huevo por boca de Nawfal y habló:

- No ha vuelto y no me han pagado la indemnización.
- Ten paciencia.
- ¡Sí...!

Volvió, roció con agua su sitio, se colocó el cigarrillo entre los labios y lo encendió.

El Tullido le vio y perdió la cabeza. Cruzó la calle hacia la tienda:

- Mi cigarrillo.
- ¿Es un impuesto, Tullido?
- Quiero uno como él. Tu Señor ama la justicia.

Y se rió.

- ¿La oca ha puesto algún huevo?
- Sí.
- ¿Y le viste los colmillos al perro?

medio de la gran explanada para que la gente pase por debajo del arco de piedra y le contemple. Todos se reirán de su aspecto y la Loca le arrojará piedras y le maldecirá: ¡Guarro. Mono mezquino que merece la cárcel! Llorará, pero nadie tendrá compasión de él”.

Temió que el Tullido leyera sus pensamientos, desvió el rostro y miró el único cartel que quedaba escrito por él y que seguía colgado al principio de la calle. Pensó: “Si no fuera por el cartel, no soportaría la proximidad del mezquino Tullido”. Maldijo el temblor que le había hecho quedarse así, sentado en la acera. Pensó que podía escribir el cartel ahora con una caligrafía más bella si su mano se curara: “Escribiré uno exactamente como éste y lo colgaré en el Palacio del Juez. Lo levantaré bien alto para que no esté al alcance de ninguna mano”.

Dios maldiga el temblor. Sabía que no tenía cura, excepto con un rosario de ámbar y recitando el nombre del Altísimo “el Sanador”, contando las cuentas, y enroscándolo después alrededor de la muñeca para absorber la humedad del nervio. Miró los rosarios que vendía; sus cuentas eran conos de plástico o madera; todo aquel que pasaba los miraba y después los volvía a dejar con desprecio. Baratos e insignificantes. Lo sabía, pero quién podía comprarse un rosario de ámbar o de auténtico ónice en estos tiempos. Los compradores no distinguían entre un rosario y otro, sólo discutían por un chelín o por menos.

Nawfal tenía una sonrisa extraña en la que los labios adoptaban la forma del “trasero de la oca”. A lo largo de su trabajo como calígrafo se había acostumbrado a apretar los labios. Con los años, abrir la boca se había convertido en una tarea difícil. Incluso aun después de haber perdido la capacidad de escribir, sus labios ya no se abrieron, sino que la cosa fue a más. Porque llevaba la profesión en la sangre y los carteles más bellos que escribiera en su vida seguían ondeando en el aire ante sus ojos. A veces rescribía los carteles colgados en su imaginación, y se asombraba de hasta qué punto la caligrafía se había vuelto tan mala.

La sonrisa paseaba por su fino labio superior como impulsos eléctricos temblorosos que se trasladaran despacio desde las comisuras de los labios hasta juntarse en el medio, formándose la sonrisa en dos labios redondeados como el trasero de la oca, semejanza que descubrió Abbas el Tullido un día, para luego atacarle con su potente zumbido y decirle:

- ¡Sonríe hombre, quiero ver tus dientes!

Nawfal redondeó los labios como el trasero de la oca observando a Abbas de reojo con una mirada amenazadora alegrándose de su desgracia: “El Juez, los abogados y los testigos se burlarán de él cuando esté dentro de la jaula con las extremidades cortadas como un mono. El Juez se sentará en el balcón y le meterán en la jaula en

Nawfal". El Juez le mirará con el ojo rojo de ira. El Juez no tiene compasión del asesino ni de la adúltera".

Le dirigió una mirada de refilón alegrándose de su mal y al pasar la vista por la tienda de Wika vio que estaba terminando de desayunar y la escuchó llamar al Tullido:

- ¡Ven, coge la comida!

Abbas cruzó la calle arrastrándose sobre las nalgas y volvió sujetando entre los dientes una bolsa de plástico en la que la señora Wika había vertido las sobras de la comida. Ella le dijo:

- Para vosotros dos.

Cuando se sentó en la acera, Abbas abrió la bolsa y le ordenó a Nawfal sin mirarle a la cara:

- Ven, toma un bocado.

Se levantó, o, más exactamente, dio una voltereta volviendo a su sitio y se sentó ante su mercancía: libros, invocaciones del tamaño de los amuletos e incienso, cajas de ámbar y nuez moscada, mondadientes y rosarios. Tenía la frente cubierta de polvo. Le dijo:

- No hay sitio para los dos.
- Es el pan de cada día.
- Pero nuestra mercancía es la misma.

Ella se sujetó el vientre con la mano y se rió:

- ¿¡Mercancías!?

Él se rió con ella y luego le dijo:

- Él tiene un hijo y yo no tengo a nadie.
- No le recuerdes las penas. Su hijo se perdió en Kuwait¹.

Le levantó la mano de un solo dedo:

- ¡También yo estuve a punto de morir en la guerra!

Ella dejó de prestarle atención, pero la mirada de él siguió pendiente de ella mientras limpiaba la losa de mármol negro a la entrada de la tienda y quitaba el polvo del anuncio que se alzaba sobre la puerta: “*Supermercado La Nueva Era*”.

Nawfal siguió la conversación como si no fuera con él y se dijo: “Algún día lo hará y se buscará la ruina; moriré bajo él, irá a parar a la cárcel, la gente le maldecirá y dirán: “el asesino de

¹ En agosto de 1990, Iraq invadió Kuwait. A principios de 1991, una coalición internacional liderada por Estados Unidos, pero que incluía tropas de varios países árabes, entre ellos Egipto, expulsó al ejército iraquí del emirato en lo que se denominó Guerra de Liberación de Kuwait. (N. del T.).

Al acabar la canción Abbas reía, sacaba la mandíbula inferior y silbaba como un pájaro: "fiuuu....". A continuación daba su famosa voltereta saltando sobre el pecho de Nawfal.

La gente se reía y también la señora Wika, que le regañaba:

- ¡Déjale!

Nawfal observó la escena desde el principio con la poca vista que le quedaba. Estaba inquieto pero no se movió. Escondió en el bolsillo la temblorosa mano derecha y le miró con odio. Cuando Abbas le cogió por sorpresa se dejó hacer y se tendió sobre el suelo, sólo le ofreció resistencia con una señal de desprecio en sus labios. El Tullido se rió en su oído:

- ¡Habla, quiero ver tus dientes!

No le respondió y luchó hasta volver el rostro en otra dirección. El Tullido se excitó y dio saltos sobre su pecho:

- Boom, boorroboom, boorroboom...

Como la farsa se prolongaba, Wika salió de su local, cruzó la calle y le dio un puntapié:

- ¡Déjale, se va a morir y te vas a buscar la ruina!

Volvió el rostro hacia ella y se rió. Desde donde se encontraba vio el color de cebolla bien entremezclado con el blanco cálido del final del muslo y se rió. La señora Wika se dio cuenta, se ciñó la chilaba negra a las piernas y le dio otro puntapié:

- ¡Levántate, guarro!

Saltó sobre él y se montó sobre su pecho, después le estrujó el cuello entre el brazo y el antebrazo de la mano que tenía un solo dedo y le preguntó: “Dime, ¿cuándo pondrá huevos la oca?”. En realidad no había saltado, sino que había rodado hacia él desde el lugar en el que estaba sentado, con una voltereta rápida, como los acróbatas del circo, pues carecía de piernas. Las piernas se las había cortado la metralla hasta la altura de los muslos. La mano izquierda también había salido volando, solo le quedó la palma de la mano derecha y el dedo medio y unas nalgas leñosas sobre cuya piel seca se arrastraba.

Era como un ejercicio matutino que iniciaba Abbas el Tullido al escuchar el programa “Canción de mañana” en la radio de la señora Wika. Ya se había instalado en su sitio, en la acera de enfrente de la tienda de Wika. Nawfal ya estaba sentado a unos cuantos metros de él. Le gustaba la sintonía del programa, se estiraba todo lo que daba de sí y bailaba. Sacudía los hombros, agitaba el vientre y traducía la canción en sonidos populares cantando:

- Chic, chic, chica boom... boom, boom, boorroboom...

La señora Wika, sabiendo lo que venía después, le decía:

- ¡Estate quieto, Abbas, y deja al hombre en paz!

CANCIÓN DE MAÑANA

Autor:

Muhammad Nagui

Traducción del árabe:

Rafael Ortega Rodrigo



سَنَابِلُ لِلْكِتَابِ

5 Sabry Abo Alam st.
Cairo - Egypt

(+202) 2 393 56 56

(+202) 2 392 65 93

Mob.:

(+20) 12 410 20 08

e-mail.:

sanabooks@maktoob.com

www.sanabil.net



Canción de mañana

Autor:

Mohammed Nagui

Traducción del árabe:

Rafael Ortega Rodrigo

3ª edición:

Enero 2010

Deposito Legal:

1585/ 2010

I. S. B. N.

977 - 5634 - 23 - 7

Diseño

KAMEL GRAPHIC

El Cairo

CANCIÓN DE MAÑANA

Muhammad Nagui